روايات عبير

الفتاة الصغيرة

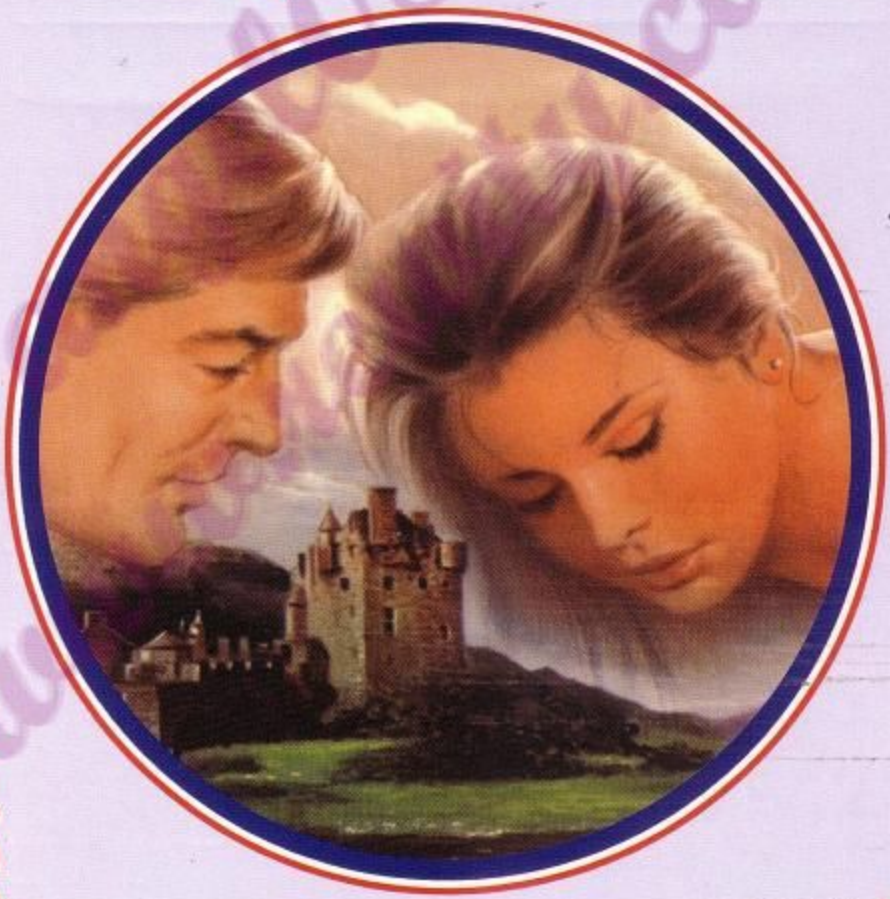

Olivia DOWNES

N° 657

روايات عبير

كانت "إليان مونفور"
مشرقة بشبابها وجمالها عندما وفدت إلى "باريس"
لكي تعيش فيها ، في أجمل فترة من سنوات التاريخ .
" الحقبة الجميلة". لكن ها هو الحادث الذي جعلها تلتقي
بالدوق "زافييه ديبون" سيعمل على إدخالها بغرابة
في المؤامرة الفوضوية المدبرة ضد الأمير "يوكوسوف".
لكن لكي ينقذ "زافييه" "إليان" من المخاطر المحيطة بها
والتي تترصد لها ، هل سيحسن الاختيار بين
سباق السيارات والسباق إلى السعادة؟!!

ISBN 9953-443-85-8

9 789953 443850

ثمن النسخة

لبنان	٢٥٠٠ ل.	قطر	٨ ريال
سوريا	٧٥ ل.	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	مصر	١٠ جنيه
السعودية	٨ ريال	المغرب	20 درهم
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	١ دينار
الإمارات	٨ دراهم	تونس	2.5 دينار
البحرين	٧٥٠ فلس	اليمن	٢٥٠ ريال
U.K.	2£		

شخصيات الرواية

١- "إليان مونفور" : فتاة من سكان المقاطعات (بطلة الرواية)

٢- "أرماند موتفور" : عضو مجلس الشيوخ (عم "إليان")

٣- "زافييه ديبون" : دوق (بطل الرواية)

٤- الماركيزة "دي سان ليجيه" : صديقة "مونفور" وصديقة الخياطة

٥- "مانون ريفي" : الخياطة

٦- "بوريس يوكوسوف" : أمير روسي

٧- "نيستور" : عامل ("جي" عند زافييه)

٨- "إيما" : خطيبة "زافييه" وابنة "آرشيدوق"

٩- "كينستان بوزون" : المصور

١٠- "سيلستين" : مديرة منزل "مونفور"

١١- السيد "ليبين" : مدير الشرطة

١٢- ضابطا شرطة

www.angelos.com

الفصل الأول

ابتسمت "إليان" . وإن كانت مغتمة ، لكن ليس عن حزن . غاية ما في الأمر ، نوع من الكآبة مختلط – بطريقة لا توصف – بفرحة الحياة لبلوغها عامها العشرين في هذا الشهر، شهر تموز (يوليو) عام ١٩٠٠ . عام يترقبه كل فرد بما يحمله من آمال قرن جديد .

كانت الفتاة قد قامت بجولة حول سهل "مونسو" ، حيث بدأ تشييد فنادق خاصة فاخرة بين الأشجار .

كانت أصوات المعاول التي تعمل على إعداد الأحجار تختلط بتغريد الطيور مثل الشحرور والبلبل .

سارت بطول سياج الحديقة . لم تلمح "إليان" من بين المتنزهين – وكانوا قليلين– سوى رجل مسن يقوم بتوزيع الحبوب على الحمام . وكان الحمام نادراً أيضاً .

تجولت في الشارع الرئيسي، حيث كانت البوابات جالسات عند أعتاب الأبواب على مقاعد .سيدات قويات يرتدين ملابس سوداء، يثرثرن ولكن دون أن تغطي أصواتهن على الصيحات المختلطة التي بالمدينة : هاهو القائم بالأعمال الزجاجية يمر! بائع الصيني! " . وإذا بأحد ركاب السيارات ، وهو جنتلمان يقود سيارة "ديتريش" ذات راديياتير من النيكل يتوهج تحت أشعة الشمس ، يقوم– من باب اللعب– بتشغيل الكلاكس أثناء مرورهم .

كانت "إليان" تحلم أثناء توجهها إلى "مانون ريفي" ، وهي خياطة كبيرة ذائعة الصيت ، حتى تتقابل مع الماركيزة دي سان ليجيه" .صديقة عمها– وسرعان ما أصبحت صديقتها هي أيضا ، مادامت الأمور تسير على نحو مذهل من السرعة في "باريس" .

وحينما وصلت إلى شارع "ميسين" سمعت صيحات غير مميزة، ثم من بعدها هرج وصيحات أخرى، صهيل خيول دفعها إلى أن ترهف السمع .

– امسك حرامي ! امسك حرامي!

بلبلة وضجيج عربة جياد ، لا شك في أن خيولها تتمرغ وسط النقالات فزعة ، عربة صغيرة ذات عجلات ومظلة قد قُلبت ، خطوات مسرعة لرجل ،لعديد من الرجال.

وفي اللحظة التي ستمر فيها من زاوية الشارع ، تسمرت في مكانها. وإذا باللص يرتطم بها أثناء عدوه. دفعها بقوة، ودون أن يبدي لحظة توقف ألقى بين ذراعيها بلفة : " لابد أن يكون ما سلبه" . هكذا جاء تفكيرها . وهو عبارة عن قطعة حديد خردة تطل من ورقة الجريدة الملفوفة بها. وقفت "إليان" دهشة تراقب اللفة التي هبطت عليها من السماء.

وسرعان ما تجمع المتسكعون . وكان أحد الصبية مازال يلاحقه ، وهو يلهث : " الحق حرامي! الحق حرامي!" . في لمح البصر ، قدرت الفتاة ما طرأ من تلفيات على هذا الشارع الصغير الهادئ في المعتاد. كما أن خيول سيارة "ليموزين" هاجت فزعا . وفي أثناء هروبه كان اللص قد قلب المسؤول بتسليم الحمامات إلى المنازل. وكان الرجل المسكين قد ترك العربة التي كان يدفعها والبرميل الضخم الأحمر والأصفر الذي سكب ماؤه المعطر الذي انتشر على الطريق المنحدر، وكذلك الأحواض التي من الزنك والمغارف التي أسرع المارة لكي يجمعوها مخاطرين بأن تبتل أحذيتهم.

أفاقت "إليان" عندما سمعت صفارات إنذار طويلة ، وإذا باثنين من رجال الشرطة يظهران بأقصى سرعة بدراجاتهما.

وإذا بالصبي الذي سُرقت منه اللفة يقف أمامها لاهثاً.

– أعيدي لي هذا قبل وصول عصافير الجنة.

دمدمت "إليان" دون أن تفهم:

– عصافير الجنة؟

– نعم "هم" . ماذا!

وبعد فترة طويلة أطلقوا "هم" نغما معبراً عن الأمر .

وصلوا.

– ما الذي يحدث ؟

هكذا سأل أقصرهم ، وهو ذو شارب مشعث.

قال الصبي:

لا شيء ، لا شيء يا سيدي. لقد سرقوا مني هذا ، وأرغب في استعادته.

– ما اسمك؟

– "نيستور" يا سيدي.

– والآنسة سرقت منك ذلك؟ ما هذا؟

وضعت "إليان" اللفة بين يدي "نيستور" ، ودفاعا عن نفسها قالت:

– لم أسرق شيئاً.

أردف الصبي الصغير :

– أرأيت أنها لم تأخذ مني شيئاً.

ألقى الشرطي نظرة ريب دائرية على المتسكعين المجتمعين ثم عاد إلى "نيستور" مقطباً حاجبيه:

– وإن لم تكن هي، فلا شك في أنها شريكة في السرقة!

قال رفيقه في العمل ، وهو رجل طويل "أصهب" ذو شعر أحمر يعلوه كاب موضوع بانحراف .

– وأنت يا آنسة ما اسمك؟

– بتلقائية ، وبحركة رقيقة ، رفعت "إليان" ذقنها المعقود تحته الإيشارب التل الذي يعلو قبعتها. حينئذ غطت الشمس وجهها.

– وحارسا السلام غمزا لبعضهما سراً. لم يسبق لهما مشاهدة فتاة بمثل هذا الجمال. كانت بعض خصلات شعرها الكستنائي تنزل على جبينها مانحة نظرتها لمعاناً أخاذاً : "عيون عسلية" هكذا فكرا.

أدعى "إليان مونفور" . أنا ابنة . اخ "آرمان موتفور" عضو مجلس الشيوخ.– أدعى "إليان مونفور" . أنا ابنة أخي "أرماند مونفور" عضو مجلس الشيوخ.

قطب الشرطيان حاجبيهما. ليس لأنها جميلة هذه الصبية.

إنها تحذرنا منذرة! وكان أول من أفاق من تأثره هو الشخص القصير.

– بالضبط، وأنا أيضاً.. إني ابن أخ لـ "إميل لوبيه"!

حينئذ ابتهج "نيستور" منتصراً:

– هل رأيتم؟ إنها ليست السارقة. إنه اللص. لقد قام بنزهة على الأقدام.

– لم تتمكن "إليان" من إخفاء ابتسامة، لأنها سرت لما صدر من كلمات غير متوقعة عن هذا الصبي. وكان الجميع يمرح، عدا البائع الذي غرق في الماء المسكوب، وكان يتمتم مطالباً بأن تدفع له قيمة ما فقده. أما من جانب رجلي الشرطة فكانا يقظين ولا يرغبان أن يسخر منهما الصبي، قال أحدهما:

– ما الذي قام به الذي سرقك؟

لم يجد "نيستور" الوقت للإجابة، لأن أحد الرجال شق الجمع في هذه اللحظة وتدخل قائلاً:

– إنه يقصد أنه جرى بسرعة ألا تعرفان هذه العبارة يا سادة.

– تفحصت "إليان" الشخص المجهول. حينئذ خفق قلبها بشدة وارتجفت يداها النحيفتان داخل القفاز الدانتيل. لقد فاجأته في اللحظة التي كان يضع فيها قبعته على شعره الأسود القصير.

وفي الوقت نفسه أبدى ابتسامة ساخرة، ترفع الجانب الأيمن لشاربه الدقيق. جمال، حركات– طريقته في الإمساك بالعصا!– مازالت مرحة، في حين أن قوامه، ونبرة صوته يؤكدان نضوجا واضحا لا يضارع.

حينئذ انحنى رجلا الشرطة:

– سيدي الدوق صباح الخير سيدي الدوق مد الدوق ذراعيه نحو "إليان".

– عزيزتي "إليان"، ياله من حادث مؤسف سادتي الضباط، الآن أتقدم بالدفاع عن هذه الفتاة كما أدافع عن نفسي تماماً.

قال أحدهم:

– لكن – يا سيدي الدوق– لقد تمت السرقة.

– لكنها قد اعيدت، وبذلك ينتهي الأمر.

هكذا قاطعه بلهجة آمرة، وكان لا يزال مستمرا في إبداء ابتسامته التي ربكت "إليان".

فجأة سمع صوت بين الجمع الصغير:

– آه.. نعم! وأنا من سيدفع لي قيمة ما فقدته؟

– إنه الرجل المسكين وكان لا يزال مبتلا ثم أردف:

– وأولاً ما هي هذه اللفة؟

– قال هذا مشيرا إلى ما كان بين يدي "نيستور" وهو عبارة عن أسطوانة من الصلب ملفوفة في ورقة جريدة.

دافع "نيستور" عن نفسه:

– لا تستمع إليه يا سيدي، لقد أفرط في الشراب. إنه ثمل بعض الشيء

على الرغم من انطلاقهم في الضحك، لم يتخل المتسكعون، وهم بطبيعتهم فضوليون، عن الفكرة التي أدلى بها مسلم الحمامات إلى المنازل. قالوا:

– حقاً، ما هذا، ما هذا؟ ما هذه القضية المعقدة؟

أبدى الدوق لمحة مودة:

– أرجوكم يا سادة، اعملوا على تفريق هذه الجموع. إنكم تطيلون عبثاً عذاب الآنسة "مونفور":

أخيراً، أطلق الشرطيان صفارات انتفض لها الجميع وعملت على تفريق الجمع. لم يكن أحد في "باريس" حتى الآن معتاداً هذه اللعبة التي زود بها السيد "ليبين" مدير الشرطة حرس الأمن ثم مد الدوق ذراعه لـ "إليان":

– اسمحي لي أن أرافقك في العودة.

– ترددت الفتاة. هل كان عليها– حقا– أن تضع يدها على الذراع

المقدمة لها؟ كيف تمكنت هذه الحركة البسيطة من ربكها على هذا النحو؟

رفعت نحو الشاب نظرة غير مثبتة مترددة . وكان يراقبها ، فتلاقت نظراتهما ثم لم يتمكنا من الابتعاد ثانية . مكثا هكذا ، وقد بدا أن كل منهما غير قادر على الابتعاد عن الآخر ! وكان سحرا معينا قد تخلل كلا منهما، سحر يصعب هزيمته . وحدث أن شفتي "إليان" أخذتا ترتجفان من تأثير نظرات الشاب الجامدة.

ثم كان لابد من أن يبطل هذا الافتتان .

قدم الدوق ذراعه مرة أخرى. وعادت إليه ابتسامته التي لا تقاوم ، تحت شاربه الكستنائي الرفيع ؛ ثم تمتم:

– ليس لك الاختيار يا عزيزتي.

– وضعت "إليان" بعض أصابعها الرقيقة على "كم" الريدنجوت، بحركة خفيفة ، خشية أن تخور من التأثر إذا لمست ذراعه بقوة.

–بذلك– أيها السادة – لقد ساد النظام ، لكن يجب إبداء شيء من اللطف من جانبكما : اعملا إذن على إعادة "نيستور" إلى المكان الذي ينبغي أن يتواجد فيه .

هكذا أردف الدوق .

– شكراً ، سيدي الدوق ، ليست غلطتي

هكذا اعتذر "نيستور".

ثم ابتعد الشرطيان وهما ممسكان بمحرك دراجاتهما. وكان "نيستور" يفسح أمامهما الطريق.

وعندما ابتعدا ، سحبت "إليان" يدها من على ذراع هذا المجهول .

بدأ هذا الأخير:

– اسمحي لي

وإذا بائع الحمامات يقاطعه متوسلا:

– سيدي الدوق ، يبدو أنك شخص طيب من سيعيد إلي مالي؟

حول الشاب وجهه نحو "إليان" مبدياً تأثره:

– المعذرة يا آنسة.

ثم أخرج بطاقة ، كتب عليها بعض الكلمات ، ومد يده بها إلى "السائل الملح":

– أعط هذا لمشروعك أو اذهب بنفسك عند والدي . ستحصل على تعويض . كفى .. في إمكانك أن تنصرف

هكذا وضح له بلهجة قاسية.

انسحب الشخص الدخيل، وقد فوجئ لرد الفعل العنيف .

ثم انحنى الدوق من جديد عازماً هذه المرة على إنهاء جملته :

– اسمحي لي أن أقدم نفسي : "زافييه ديبون" . كم أسفت بأن لحقت بك هذه الأحداث المؤسفة يا آنستي

ومنذ أن سمعت "إليان" اسم الشاب ، انطلقت في الضحك .

اتسعت حدقتا عينيها رغماً عنها. عضت على شفتيها . وجنتيها وأنفها تقطبا ، وفجأة استدار فمها على رنين ضحكة خفيفة . اندمج "زافييه" في هذا المرح عند سماع صوت هذه الأنغام الواضحة ، وإن لم يفهم سبب هذا الاندفاع الفجائي.

قال بنبرة توسل:

– أفي إمكاني أن أعرف، أخبريني؟

علت الحمرة وجه "إليان" . كيف استطاعت أن تظهر بمثل هذه الوقاحة ؟ كان من المستحيل الكشف عن مصدر مرحها ، بينما الشاب لم يكون من نفسه هذا التشابه الذي أتى إلى ذهنه: " ماذا ستكون فكرة هذا البائع المسكين، عندما يكتشف على البطاقة اسم الدوق "ديبون" !"

بحثت بحرارة عن كذبة تسمح لها بالاحتفاظ بكرامة من صنع معها خيراً ، لكنها لم تجد قط. تعتمت وقد أدانت عفويتها المعروفة عند سكان المقاطعات.

ألح الدوق:

– ضعي ثقتك بي أليس لي الحق في الضحك أيضا؟

قالت في هجوم:

– سيدي الأمر يختص بأحد أسرار الدولة .

مال عليها وقد تظاهر بالتواطؤ :

– لا تتحدثي عن ذلك بصوت عال قد يظن من يسمعك أن عمك ارتكب شيئاً من عدم التكتم.

ظنت ابنة أخ عضو مجلس الشيوخ أنه كان ينبغي أن تغضب إزاء هذه الفكرة . لكنها لم تتمكن من ذلك وكان ثمة تواطؤ قد نشأ بينها وبين "زافييه" . تواطؤ لم يكن سوى تقارب نتج عن التأثر العميق الذي– بنظرة – دفع بهما الواحد نحو الآخر دون أن يعملا على التخلص منه.

ثم تملكها شك جعلها تتعتم ، ربما أنها خدعت ، ربما أنها هي وحدها التي شعرت بهذا الارتباك ، أو ربما أنها لم تفكر في الاستفادة من هذا اللقاء إلا لكي تمرح قليلاً؟

الدوق "زافييه ديبون" ! ما شأنه بها لمجرد أنها ابنة أخ عضو مجلس شيوخ؟

رفعت كتفيها في اعتزاز . لا شك في أن هذا الرجل أربكها إلى حد أنها كانت تقلب الأوضاع . وكان السؤال يتلخص في التعبير المضاد : هي "إليان مونفور" ، من يتقرب منها كل الرجال ، ما شأنها بهذا المغرور الذي يعتبر ذاته "دون جوان" ؟

قاومت "إليان" لكي تتخلص من هذه المشاعر المتناقضة : وكانت موشكة على نسيان موعدها عند "مانون ريفي" ، حيث كان ينبغي أن تكون في انتظارها الماركيزة "دي سان ليجيه" .

قالت :

– أشكرك لما قمت به لكي تخلصني من هذا الحادث. إني على موعدو

– دعيني أرافقك. هانت ترين أن الشوارع ليست آمنة.

أخفضت عينيها . لم تتوقع هذا العرض. إن وجود "زافييه" يبعث فيها الارتباك . شعرت بأنها غبية ، مجنونة حتى إنها تود لو أجابت دون

تفكير "آه، نعم، اصطحبني حتى إلى نهاية العالم!" وفي الحال رغبت في الرفض ، وكأنه طلب غير شريف ، وهو من البديهي غباء!. كان عليها أن تسيطر على ذاتها دائماً عند تواجدها مع هذا الشاب، أن تزن كل كلمة تصدر عنها حتى لا تبدو شاذة أو سخيفة . أين إذن مضت الفتاة الحكيمة ، الرزينة التي كانت هي حتى صباح هذا اليوم؟

شعرت أن صمتها أصبح بليغاً . كان عليها أن تجيب ، أن تتخذ قراراً. ومع كل ، تعتبر الموافقة على صحبة شاب قد أنقذتها من إثم.

– فتحت مظلتها في رقة ، وعملت على حماية وجهها بها ، في اللحظة التي أردفت فيها وهي تتنهد :

– سأتجه نحو شارع "دي فوبور سان أونوريه" ، عند "مانون ريفي" .

قد تكون قد ترددت في القول : إني متجهة نحو "ورث" أو عند "جان لانفان" وهم خياطون مشهورون يعدون ملابس الشرفاء الأثرياء ؛ لكنها تعلم أن اسم "مانون ريفي" وهو في فجر المجد ، يقدم إنتاجا مكللا بالعجائب . فهو يعبر في آن واحد عن التواضع والاحتشام والتميز، وليس في ذلك ما تخجل منه "إليان" .

أتوبيس، يجره جوادان رماديان ، رفعت سحابة من غبار : وكانت طبقة قش قد بسطت على الشارع لكي تخمد صوت العجلات المحاطة بإطارات حديدية أمام منزل شخص مريض حالته تستدعي السكون .

اختنقا لحظة من رائحة التبن . وعندما رأت "إليان" القش الناعم يتوهج في الضوء استعادت مشاهدتها لمنظر حقول القمح الناضج التي كانت تحلم بها – عندما كانت طفلة – بالجري خلال هذه الحقول ممسكة بيد من يكون قد ملك قلبها إلى الأبد. وفي الحال بدت لها هذه الذكري منفرة. هل "زافييه" متزوج ؟

إن القفاز الذي يضعه يخفي يديه. ولماذا تتساءل هكذا؟

ثم اضطرت إلى تحويل ذهنها عن الأفكار السخيفة .

سألته بغتة :

– هل لديك فكرة عن الشيء الذي كان يحمله "نيستور" ؟

– أخذ "زافييه" يضحك:

– لماذا أخفي ذلك عنك ؟ إن "نيستور" يعتبر صبياً عندي لا، شريكي. كان ينقل قطعة من اختراع لي كنت أرغب في إرسالها الشهر القادم في مسابقة "باريس – دو فيل" اقشعرت "إليان" . مسابقة "باريس – دوفيل" . لقد سمعت عنها : في كل صباح وقت تناول الإفطار ، وكل ظهر عند تناول الغداء، وكل مساء وقت العشاء . لأن عمها وكان مقتنعاً بأن التحرك الذاتي ليس بلا مستقبل فحسب بل إنه يعرض اقتصاديات البلد للتدهور – يقاوم هذه "الالاعيب البهلوانية سباق ومسابقات حيث يتفاخر المخترعون من لم تتجاوز أذهانهم المسكينة مرحلة المراهقة" .

أردفت في سذاجة فخورة بدراستها في هذه المادة:

– وبذلك تأمل أن تتحدى السادة "جيناتزي دي ديون" و"بوتون" .

– كلمة تحدي كلمة قوية يا آنسة . حقاً إن هذه المسابقات تحثنا ، لكن هدفنا جميعا هو أن نرى قريباً جهودنا وقد كللت بنجاح السيارة الذي لا يضارع.

شعرت "إليان" بمزاج حسن : كانت تتمنى أن يهنئها على معرفتها ." لكن بلا شك– هكذا حدثت نفسها– من أنه يعرف وجهة نظر عمها، ووجد أنه أمر طبيعي أن أكون ملمة بهذه الأمور. هذا بالإضافة إلى أني كنت سأجرح أكثر عندما يهنئني مثل طالبة ثانوي على مقاعد مدرسته؟ ربي ، كم أني أصبحت معقدة في حضرته!"

ثم فجأة :

– لكن هذا لا يعقل : لقد حاولوا سرقة اختراعك و هانت تبدو غير مبال.

أجاب الدوق "ديبون" مفكراً:

– وفيم يفيد ذلك؟ إنها المرة الثالثة خلال شهر التي تختفي هذه القطعة أو توشك على الاختفاء.

– ما رأيك ؟ ماذا تقصد؟

– إنهم يعيدونها إلي دائما دون أن أكتشف هذا اللغز.

– ومن الذي يستطيع إذن، بذلك؟

– مخترع صغير معزول وساعمل على معرفته.

لمحا معاً– من شارع "بيري" عند ناصية شارع "فوبور سان أو نوريه" بالضبط أمام بوتيك "مانون ريفي"– سيارة رائعة "بانهارد ليفاسور" وكأنها تسلط عليهما كشافاتها ذات الإطارات النحاسية .

كانت الماركيزة "دي سان ليجيه"– وهي متدثرة بمعطف من "الاستراكان" ذي إزار على الكتف وعلى رأسها توك يضم شعرها – تجلس أمام عجلة القيادة وإلى جانبها رجل وعلى إفريز الشارع مصور ، يخفي رأسه تحت نسيج أسود، يثبت الوضع إلى الأبد.

توقف "زافييه ديبون" . ثم ألزم "إليان" بمواجهته وذلك بأن ضغط بيده على ذراعها . لقد اكتشفت الفتاة قوة على ملامحه ، لم تتوقعها.

سألها بصوت جاف مستفسراً:

– هل أنت على موعد مع الأمير "يوكوسوف" ؟

– مع من؟

أظهر ابتسامة فاترة:

– أطلب منك العفو أعتقد أنك لن تخاطري بأي شيء أو تتعرضي لأي سوء أثناء هذه الأمتار القليلة التي تفصلك عن أصدقائك . إني مضطر لأن أتركك هنا.

– أمسكت "إليان" بمظلتها بقوة ، وكأنها تعمل على الاحتفاظ بفراشة وتخنقها في الوقت ذاته . ثم بعد نزع الدوق غطاءه . مال عليها، وإذا بشعره الناعم يلمس أنف الفتاة . وفي اندفاع ، أمسك الدوق بيدها اليسرى : رفعها إلى شفتيه ، ملاطفاً بشرتها الناعمة بوجنته على دانتيل القفاز . ثم قبل للمرة الأخيرة الأنامل الطويلة السلسة التي ترتجف تحت فمه.

وبعد أن وضع "زافييه" غطاء رأسه تعرفت "إليان" على ابتسامته نصف الابتسامة التي لا ترفع سوى الجانب الأيمن للشارب الكستنائي الرفيع.

الفصل الثاني

قفزت الماركيزة "دي سان ليجيه" من على سلم سيارتها وصاحت في فرح:

– "إليان"، أخيراً! تعالي هنا، لأني أرغب في تقديم صديقنا "بوريس يوكوسوف" إليك.

وبينما كانت "إليان" تحت تأثير اللقاء، تضايقت داخليا لما تبديه الماركيزة من دلال وعجب. عملت على الإسراع نحو السيارة، وكان هذه الحركة فصلت بين جسدها وروحها التي كانت لا تزال تحلق في المكان الذي استأذن فيه منها "زافييه"، على بعد عدة أمتار من هذا المكان.

سمعت من تنطق:

– أرجو أن تغفري لي.

– قبلتها الماركيزة بحرارة، وحولت نظرها إلى الأمير الروسي، وهو شاب ضخم في أربعينياته، ذو جمال أخاذ وسحر فاتر، مخيف، يصدر عن وجهه ذي الملامح الصارمة. انحنى للتحية في احترام، ومع ذلك دون أن يكف عن تثبيت نظرته على الفتاة، تلك النظرة الصادرة عن عينين رماديتين، وكأنه على علم بأنه بذلك يربك "إليان" ويرغب في دوام هذا الارتباك.

وإذا ببائع حشيات– يدفع بعربته – يمر أمامهم، يفتح عينيه واسعتين أمام هذا المشهد الأخاذ: لقد جئا الأمير – في إعجاب خاص بالروس وحدهم – على الرصيف ممسكا بيدي "إليان" وهما في القفاز.

– يا للبهاء! الشخص المتواضع الفاني الذي أنا هو ينحني في احترام أمام الجمال الأزلي!

وكانت لنبرات صوته دفء أغنية تسر لسماعه.

وكان قد شدد على كلمة "احترام" مما عمل على إغراء الفتاة رغماً عنها. وها هي قد سرت لهذا المشهد، حتى إنها – بدافع من دلال

ساذج – ندمت على أن "زافييه" لم يشاهده. ثم خجلت لهذه الفكرة، غير أن الأمير أردف:

– آه، كم أني أرغب في اصطحابك حتى تنافسي شموس البراري! إن الخيول الوحشية لابد أن تسقط تحت قدميك.

– "إنه يسخر مني هكذا بدأت "إليان" تفكر؛ إذ كانت غير معتادة هذا النوع من الإطراء. وإذا بالماركيزة تأتي وتخلصها من هذا الضيق؛ قالت:

– "بوريس" وكأنك وحش، سوف تظن المسكينة أنها قد تلتهم ثم يبدو أنك قد غفلت عن وعودك بأن تكتفي بالظهور أمامها بالعلاقات الرسمية.

عضت "إليان مونفور" على شفتيها، إذ اعتراها إحساس بأنهما يتحدثان عنها وكأنها شيء ما. وها هو الأسلوب الذي كانت الماركيزة تتكلم به بدا لها جريئا. استفادت من كلماتها لكي تسحب في جفاف يديها التي كان "بوريس يوكوسوف" يضغط عليها بشدة بين يديه.

سألتها:

– علاقات مهنية، ماذا تقصدين بذلك؟

– سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد وإلا فسيشعر "بوزون" بأنه مستبعد، وبذلك نتعرض لإحدى ثوراته كفنان!

وفي الواقع، كان "كينستان بوزون" المصور قد بدأ يمل، إذ بدت على ملامحه بعض العصبية. كان هذا الرجل القصير والبدين مهتما بهندامه، عاملاً على منحه شيئاً من الغرابة: بنطلون ضيق عند النهاية، سترة ذات زخارف غريبة. وقبعة ضخمة سوداء أشبه – وهي على رأسه مع بدانته– بغطاء وعاء مكرش.

عندما أشركته الماركيزة في الحديث، قال:

– رائعة، لذيذة. إنها لذيذة! إنه الشاعر الذي يتأملك يا آنسة. أتسمحين لي بأن أصورك؟

ارتبكت "إليان" لهذا الطلب الفجائي الجاف قالت:

– حقاً . ليس في استطاعتي أن أجيبك ، لكني أعدك باستشارة عمي بشأن هذا الموضوع .

حينئذ تدخلت مدام "دي سان ليجيه":

– لا تضايقي عمك بهذه الأسئلة . أنا كفيلة بالردعنه بالموافقة . إنك تعلمين جيداً أن "أرماندد" لا يرفض لي مطلباً.

– وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها "إليان" سيدة تنطق باسم عمها علناً . إن هذا النوع من التآلف قد بدا لها فظا، نسبة إلى اللحظات التي لاقت فيها نسبياً– عندما تقابلت مع "زافييه"– الإحساس بانها نقلت إلى عالم آخر. لكن كان لابد لها من الاعتراف بأن الماركيزة تقول الحقيقة : يبدو أن "أرماندد" لا يستطيع أن يرفض لها أمراً.

قاومت الفتاة لكي تتمكن من الاندماج في هذا المجال ،فاختارت النبرة الساخرة . قالت:

– وهل أنت من جانبك تولين أهمية إلى هذا الحد لما عرضه عليّ الآن السيد "بوزون"؟

– بالتأكيد ، حتما . عندما شاهدت جمالك ونضارتك ، فكرت في الحال في أن "مانون ريفي" لن تجد سفيرة أفضل منك تعمل على نشر مجموعتها الجديدة.

ودون أن تترك لـ "إليان" الوقت الكافي للتحقق مما تطلبه منها الماركيزة، كان "كنيستان بوزون" يشير إلى السيارة الـ "بآنهارد – ليفاسور" المركونة أمام الرصيف.

– يسعدني إذا اتخذت لك مكاناً في هذه السيارة الفاخرة بجوار مدام الماركيزة.

– لا جدال في ذلك ! عمي .

– لا تخافي من عمك يا "إليان" ، مادمنا معاً أخبريه بأنه بدافع من رغبتي وسوف يسر لذلك كثيراً .

وهكذا ألحت مدام "دي سان ليجيه".

– إنك تعلمين جيداً أنه من المستحيل. إن عمي يعارض في مجلس الشيوخ بشدة هذه اللعبة التي تعرض بتحطيم سمعة "فرنسا" إزاء الخارج . هذا بالإضافة إلى أنه حذرني من الظهور في أي سيارة أوتوماتيك.

– سيارة أوتوماتيك – هكذا كرر "يوكوسوف"– إنها ظريفة جداً!

– كلمة أظرف من أوتوموبيل "مجرد سيارة".

أفحمته "إليان" وقد تملكها الغضب لاستعماله ضمير الغائب كلما ذكرها.

– غير أنها كلمة أكثر دقة للمعنى . إنه "قرار" حديث للأكاديمية .

– "أوتو" كلمة للمذكر ولا يقال : إنها ظريفة".

استطردت الماركيز وهي تحوط خصر "إليان" الرفيع بذراعها:

– كوني صديقة لي، لأن هناك علاقة بالسيارة الأوتوماتيك والعلاقات المهنية التي كلمتك عنها منذ قليل. لقد اتخذ عمك– بالنسبة لهذا الموضوع – موقفاً رجعياً حقاً. وهانذا أحاول جعله يغير من رأيه . كما أني في حاجة إلى حليفة..

كفت الفتاة عن الإصغاء. بدت ابتسامة على شفتيها . تخلصت من ذراع الماركيزة : كانت هذه اللمسة الودية ثقيلة عليها بينما كانت – بكل وجدانها– تفكر في "زافييه ديبون".

كانت سترفض في الليلة السابقة مثل هذا العرض.

كان عمها سيثور لذلك ، لكنها كانت ستقبله . كان عليها أن تواجه عضو مجلس الشيوخ "أرماندد مونفور". حسنا ، سوف تواجهه، أليس لها الحق – هي أيضا– في مساندة معتقداته وتحريمها كيف مكثت حتى الآن غير مهتمة بهذا الاختراع الذكي : سيارة تتقدم بلا خيول يا للذكاء، للدقة كم من الحب لزم للوصول بها إلى هذا الحد!. وهل ستبقى "إليان" غير مبالية لهذا التقدم ، وهل والدها – الذي طالما دفعها بصدق للاهتمام بكل شيء – لن يتأثر لو أنها ظلت غير مبالية ؟ شعرت

فجأة ان إقامتها في "باريس" – عند عمها – بعيدة كل البعد عن دفعها إلى النضوج ، بل لقد أعادتها إلى حالة الطفولة . كان لابد من أن تتحرك .

قالت إذ سرت للقرار الذي اتخذته منذ قليل:

– اتفقنا . كما أني مشتاقة جداً لمشاهدة الموديلات الجديدة لـ "مانون".

– إنك ملاك يا "إليان" .

هكذا قالت لها الماركيزة في حماس وهي تقودها نحو البوتيك . مع ذلك ، ستكون له مكاسب في ذلك .

– ماذا تقصدين بقولك هذا؟

– "بوريس" يرغب في إرسال الاختراع الفرنسي وأنا معتمدة على "أرماندد" للقيام بهذه العملية.

– لن يوافق.

– بل سيوافق ، لأننا سنكون – الآن– اثنتين تعملان على جعله يغير من رأيه.

كان بوتيك "مانون ريفي" له رائحة شمع عسل النحل.

كانت المنضدة وكذلك الأرضية الباركية "فرساي" والأرفف من خشب قد تآكل مع مرور الزمن ولون الخشب الداكن كان يبرز لون الحرير ، التافتاه وكانت أصوات المقصات وحفيف الأقمشة مع الاحاديث الخافتة تختلط في جو أشبه بالخلية.

عند سماع رنين أجراس المدخل ، كان وجه "مانون" مخفياً بأحد المانيكانات من الخيزران ، تعمل عليه على إتمام اللمسات الأخيرة لفستان رقص من الدانتيل الوردي والأبيض. إنها قصيرة ، نحيفة ، نشيطة . وكان عضو مجلس الشيوخ قد أوصاها بعدة موديلات لابنة أخيه . وأثناء ما كانت "إليان" تقيس هذه الفساتين ، قدرت مدى لطف وذوق "مانون" . وثقت الفتاة بها ووافتها بسرها . حدثتها عن والدها وعن ساعات طفولتها المرحة ، عن فترة مراهقتها . عاشت معها–

محاولة إدراك هذا الموقف – مأساة غلق مصانع الغزل الذي تسبب في الإفلاس مدمراً بذلك السيد "مونفور" والعاملين عنده. أدى ذلك إلى أنهما أصبحتا تتبادلان الحديث في غير تكلف .

وعندما أخبرتها "إليان" بقرارهابالنسبة لقبول أخذ الصور الذي عرضه عليها "بوزون" بصحبة الماركيزة عندما خرجت للمرة الأخيرة من السيارة "بانهارد ليفاسور" قادتها "مانون" إلى صالون منعزل . أخرجت من صوان الملابس التي كم تمنت أن ترى يوما سيدات صاحبات سيارات ترتدينها.

كان الموديل بسيطاً : منحصراً فقط عند الوسط ، يربط من الخلف أو يثبت بأزرار على الكتف ، أو يغلق بالأزرار من الجانب وهي أنواع كابات تترك للجسم حرية الحركة ، لكن تحد من السرعة. كم أعجبت "إليان" بفراء بلون الصدأ ذي شعر قصير وحريري .

قالت لها "مانون" مؤكدة:

– إنه فراء غزال من إفريقيا . هذا يناسبك تماما.

بدأت الفتاة تحل البوليرو التفتاه الذي يغطي فستانها الأجوريه، غير أن "مانون" أوقفت حركتها:

– لا داعي ارتدي المعطف على ملابسك .

– أرجو ألا يطول المشهد لأني سوف أموت من شدة الحرارة !

وأثناء ما كانت "مانون" تساعدها ، أظهرت "إليان" أنها متوترة .

– ماذا بك؟ هل هناك ما هو غير لائق؟

– نعم ، أنت . ألا تشقين بأنك أقدمت على ارتكاب حماقة ؟

– حماقة ، سخافة ، لماذا ، يسعدني أن أرتدي إنتاج بتوقيع "مانون ريفي" !

هكذا أفحمتها متغاضية عن السؤال .

– أنت تعلمين جيداً ما أقصده . ألا تشعرين بأنه في إمكان مدام "سان– ليجيه" استخدام هذه الصورة لكي تضع عمك في موقف حرج؟

– آه! حقا!

واستمرت "إليان" في الضحك . وظلت الخياطة حائرة.

– وهذا يسرك ؟

– حتما يا "مانون".

حكت "مانون" رأسها:

– لا تثقي بها. سوف أغتم لأنك وقعت فريسة هذه السيدة.

– إنها حقا ليست شريرة ، لكنها تجيد اللعب "أي لعوب" واللعب في حد ذاته شر من أساسه. أخشى ألا تكون لديك الأسلحة اللازمة للدفاع عن نفسك.

أخذت الفتاة تدور حول نفسها ، معجبة ، مسرورة ، في مرح ، وفي النهاية قبلت فجأة صديقتها على وجنتيها:

– لا تقلقي، من عادتي ألا أثق بأحد ولا بأي شيء أؤكد لك : الماركيزة ليس لها دور في قراري.

كانت "إليان" مشرقة من فرط سعادتها . لقد تطورت المراهقة المتحفظة ، ذات الجمال البارد إلى حد ما.

أردفت الفتاة:

– تصوري يا "مانون" . يحدث لي أن أفكر وأن تكون لي آرائي الخاصة. وأرى أن موقف عمي إزاء السيارة الأوتوماتيكية غير مقبول . إني مقتنعة بأنه جنون عابر لكنه اختراع سيقوم بثورة إنتاجية في القرن العشرين.

– لكن في إمكانك الدفاع عن معتقداتك وأفكارك دون أن تحطمي مركز عمك كعضو مجلس الشيوخ أم لا؟

تظاهرت ابنة أخي عضو مجلس الشيوخ بالغضب.

قالت وهي تبتعد عنها:

– هيا لا تفسدي مرحي وسروري !

– عن اليسار قليلاً ، يا مدام الماركيزة – هكذا توسل إليها "كينستان بوزون" – إنك تخفين اسم السيد "بانهارد".

– لاشك من أن هذا السيد سوف يعجب لمعرفة أنه مختف خلفي.

ثم أخذ "يوكوسوف" – كما في مونولوج – يحكي بطريقة لاذعة السهرة التي كان قد قضاها في الليلة الماضية، شارع "القاهرة" في عرض لـ "بيل أوتيرو" . وكان المصور يضحك بوقاحة وسفاهة مدام "دي سان ليجيه".

تساءلت "إليان" عما سوف يكون رد الفعل عند "زافييه" إزاء مثل هذا المزاح . فجأة شعرت بعدم الارتياح لتواجدها وسط هذا الثلاثي. لقد بدا لها أن الدقائق الأخيرة التي قضتها، قرارها بعدم الأخذ برأي عمها، حديثها مع "مانون" ، وما كان يثار من حولها من مرح متحرر، بالإجماع أن كل ذلك يبعدها عن "زافييه"، في حين أنه بالعكس . كل من حركاتها كانت نابعة من صميم إرادتها بأن تقترب من كل ذلك .

وعندما أعجبوا بالفراء الذي يزيد من جمال لون بشرتها ، عندما شبهت بالغزالة الرشيقة ، انقبض صدرها في مرارة عندما فكرت في هذا الحيوان المسكين الذي ولد ذات يوم. كم جرى– بعد أن شبّ– متعطشاً إلى الحرية في أرجاء الصحاري ، ولقي مصرعه لكي يكسو إحدى الباريسيات المحبة للأناقة . شعرت "إليان" بأنها أخذت في فخ . هاهو لقاء هذا الصباح يبدو لها غير حقيقي.

أمن الممكن أن يكون الذوق الشاب قد بهرها بنظرة واحدة إلى هذا الحد؟

وإذا كانت لن تراه بعد الآن، وكأن الحياة كانت قد توقفت في اللحظة التي عمق "زافييه" عينيه في عينيها. ومع ذلك ها هي الحياة مستمرة . والحقيقة هي أن "إليان" مقدمة لتعجل "بوريس يوكوسوف". "إليان" مجروحة من مزاح مدام "سان ليجيه" الخفيف . "إليان" أسيرة في عدسة "كينستان بوزون" وما زاد عن ذلك فهو ليس سوى حلم غير متعقل.

– "ليانوشكا" . كم إني أتمنى معرفة ما يسرح بخيالك!

– أخرجها الأمير من أفكارها ، وكأنها أمسكت متلبسة. انتفضت ، ثم حاولت انتحال عذر مصطنع.

حينئذ تدخل "بوزون":

– لا تعتذري. أعتقد أن بيدي أجمل صورة عملتها في حياتي.

– استطرد "يوكوسوف":

– ستكون صورة للغجري! وأراهن بمائة روبل أنها ليست السيارة التي يرغب في شرائها!

وهذه المرة عادت الآنسة "فونفور" إلى الأرض.

قفزت وهي في حالة هجوم:

– إنك تسبني يا سيد! أرجوك أن تسحب هذه الكلمة الطاعنة حالاً وإلا فسأضطر إلى موافاة عمي بالأمر.

هنا صاحت الماركيزة:

– لا تكوني مندفعة هكذا يا عزيزتي! أنا لا أرى حرجا في ظهورك عند كل غجر الروس شيئا فشيئاً! اتخذي الحذر. لقد ارتكبت الآن خطأ دبلوماسياً كبيراً.

وإذا بالأمير يعنفها:

– أفيدينا بما لك من مبررات، وسوف أقهر بنفسي هذا الحيوان العنيد.

ثم اقترب من "إليان" وبأصبعين ضغط بهما أسفل ذقنها ألزمها برفع وجهها نحوه.

– لقد أخطأت يا آنسة. أنا لم أقل إنك للبيع وإذا بنوبة غثيان تلحق بالفتاة إثر هذه اللهجة السخيفة.

وعلى بعد عدة سنتيمترات منها، أبدى "يوكوسوف" حركة ازدراء، أراد أن يجعلها ابتسامة ساخرة. لقد فتحت شفتاه الممتلئتان لتكشف عن فم ذي شهوة ولذة حيوانية.

اقترب منها أكثر:

– في بعض الظروف يا جميلتي لا يشتري، إنما يأخذ!

أخذت "إليان" تلهث. ها هي الآن لا تفكر إلا في خمد خفقان قلبها المضطرب بالثورة ولما استندت إلى غطاء السيارة، شعرت بثقل وزن

"بوريس يوكوسوف" كانت ترغب في التخلص من هذا الوضع السخيف غير المريح الذي لا يسمح لها بالتخلص منه.

وفي لمح البصر، رأت كيف أن وجه "زافييه ديبون" تقلص فجأة عند مشاهدته لهذا الرجل؛ وعاد أيضا إلى سمعها سؤالها أو بمعنى أوضح عتابه: "هل أنت على موعد مع الأمير "يوكوسوف"؟". لم تعد ترغب في العناد. لقد بدت لها هذه الحركة الجريئة مملة وإن لم تدم سوى ثوان. ولم تأت لنجدتها لا الماركيزة ولا "بوزون". كان عليها أن تدافع عن نفسها بمفردها. "سواء للرجل أو للمرأة – هكذا كان يردد والدها – فإن أنجح سلاح لمقاومة الاعتداء هو الضحك".

لذلك انطلقت في الضحك:

– لسنا في "يوكرين" حيث تقترب الحيوانات من بعضها لكي تستدفئ! إنك ثقيل جداً يا سيد بالنسبة لصباح يوم صيف.

– ابتعد عنها "يوكوسوف". ولما كان يجيد معرفة الأساليب الفرنسية، لم تخف عليه كلمة "ثقيل". غير أنه على الرغم من ابتعاده إلا أنه بدا في عينيه شعاع غضب.

أما مدام "دي سان ليجيه" – وقد تملكتها الغيرة – فقررت أن تنتهز الفرصة لكي تبدو خفيفة الظل:

– حقاً إن مع ستين كيلو متراً في الساعة، هذا الفراء يعتبر ضرورياً، لكن كان على "مانون" أن تتدبر ما هو أخف لفترات الاستراحة.

وقادت "إليان" نحو بوتيك "مانون".

عند ناصية شارع "بيري"، توقفت فتاة حاملة زهور لكي تتأمل السيارة. وهي فتاة هزيلة، ذات ضفائر من الشعر الأحمر، تضم بين ذراعيها النحيفتين باقة زهور وردية تكاد أن تختفي من خلفها.

– يا لها من زهور رائعة.

– هكذا تمتمت "إليان" هذه الكلمات، غير أن الأمير الذي كان لا يبعد النظر عنها كان قد قرأها على شفتيها.

قال:

– إذن فهي لك يا آنسة .

ثم أسرع نحو الفتاة ، وقد أخرج من جيبه أوراقاً مالية .

دافعت الصبية قائلة:

– لا أستطيع يا سيد . لا أستطيع، إذ إنه عليّ تسليم هذه الباقة إلى السيدة "مانون ريفي".

– حسناً! عليك بتسليم غيرها!

– مستحيل إن المسافة التي ينبغي أن أقطعها طويلة . والسيد الذي يرسلها إليها يخشى ألا أجدها .

حينئذ تدخلت "إليان":

– كفّ عن مضايقتها.

ثم فتحت باب البوتيك حتى تتمكن الصغيرة من الدخول.

وأضافت :

– على أي حال، إن جمال هذه الزهور ينتقص إذا ما صدر عنك.

ثم تقدمت الفتاة، ودخلت بدورها عند "مانون"،يتبعها الأمير والماركيزة.

ولما تواجد "بوزون" بمفرده على الرصيف ، بدأ يجمع معداته.

سلمت الصغيرة الباقة إلى "مانون" التي كانت قد أتت لملاقاتها. وكانت لا تزال متأثرة ؛ تمتمت :

– إنها من أجل الآنسة "مونفور".

خفق قلب "إليان" في الحال. "زافييه"! إنها واثقة بذلك . إذن فهو أيضاً يرغب في رؤيتها، هو أيضاً رأى أن لقاءهما كان جديراً بمثل هذه الزهور الرقيقة، أرق زهور وأنقاها! وبذلك اشتركا في نفس المشاعر دون الحاجة إلى الكلام!

وأمام دهشة الباقين ، رفعت الدبوس الذي يرفق البطاقة بالزهور ، وقرأت – وما كانت في حاجة للقراءة– هذه الكلمات : "زافييه ديبون".

اتجهت الفتاة الصغيرة نحو باب الخروج . غير أن "مانون" لحقت بها لكي تمنحها بعض النقود . أعادت غلق الباب ثم عادت إلى "إليان".

قالت:

– يا لك من كتوم! من الذي أرسل لك ذلك؟

كانت "إليان" متحاملة عليهم جميعاً لأنهم عملوا على إفساد أحلامها ، لكنها تعلم أن هنا ليس في استطاعتها الابتعاد . تنفست بعمق قبل أن تكذب:

– آه، لا أهمية لذلك . إنه شخص قدمت له خدمة عن غير قصد.

– ألحت مدام "سان ليجيه" في سؤالها:

– أخبرينا من هو؟

– لا أعتقد أنه مشهور إلى هذا الحد "زافييه ديبون".

ضحك الأمير بصوت عال:

– "زافييه"! أمر عجيب مضحك ! لقد ظننته من شدة تهربه من النساء

قاطعته الماركيزة:

– "بوريس" ، عفواً! أولاً، "إليان" ليست فتاة . إنها ابنة أخي "أرماند".

ثم التفتت نحو الفتاة وأضافت:

– إذن "زافييه" تمكن أخيراً من مقابلتك.

– توصل إلى أن تمكن من مقابلتي؟

– إنني مسرورة لذلك كثيراً ، لأني أعلم أنك بالنسبة له النزيلة غير المتوقعة. كم من مرة عرضت عليه أن يقدم نفسه لك قد تكون لديه مقاصد أخرى.

– لأي غرض ؟ عم تتحدثين ؟ماذا تقصدين؟

– ينبغي حتماً أن يتخلى عمك عن التصدي لمشاريع سباق السيارات و"زافييه" مستعد للقيام بشتى الوسائل لكي يجعله يغير من رأيه؛ لذلك أجد نفسي مسرورة لقراره هذا، وهو استخدامك لهذا الغرض.

– يستخدمني ! لكن يا سيدتي ، أعتقد أنك لا تزنين معنى كلماتك!

هنا قهقه "يوكوسوف" مستهزئاً:

– هل أنت عاشقة؟

لم تدع الماركيزة الفرصة للفتاة حتى تتمالك نفسها:

– أتعشم أن يكون لا! لا تنخدعي يا "إليان" : إذا كان قد أبدى لك ابتسامات فهذا لكي يصل إلى أغراضه، وأعتقد أنك على قدر من الذكاء ، لكي تقفي إلى جانبه.. إلى جانبنا جميعاً.

– لكن بصفة خاصة– لا تنخدعي بهذا الدب! إن والده يستبقيه لأفضل وضعو.

هنا انفجرت "إليان" :

– إني أمقت أسلوبك والمعاني التي تستخدمينها . لقد تقابلت مع السيد "ديبون" بطريقة عرضية ، فجائية حتى إنه لم يكن هناك فرصة لأي اعتبار أو شيء في الحسبان.

– لا تركبي أعلي ما في خيلك ! إني غاية ما في الأمر أخشى أن يكون هذا اللقاء مدبراً . بدلاً من أن تتضايقي، كوني جميلة ، مرحة ، لعوبا ، واعلمي أن الأمر مختص بشاب مرن وكله مرح ، كما أنه يتمتع بروح الدعابة!

– إنك إنك على حق.

هكذا اعترفت "إليان" مهزومة وخارت قواها ، وارتجفت ساقاها من تحتها . لقد وجدت نفسها شاذة في هذا المعطف الذي من فراء الغزال في شهر تموز (يوليو) أمام هذه الزهور التي تبدو لها فاخرة كفتاة من الريف.

رغبت في الانصراف في الحال. كان لابد لها أن تتصرف ، أن تذهب إلى عمها وتخبره بالآتي : لقد اضطررت لأن تلتقط لي صورة في سيارة بلا خيول لقد وقفت إلى جانب الآخرين وخضعت لفكرتهم وكان أولئك الآخرون قد داسو على أمتن ما بداخلها : الثقة.

تخلصت ببطء من فرائها .انتزعت القفاز الجلد وهو ما منحتها إياه "مانون" بدلاً من القفاز الدانتيل الذي كان "زافييه" قد طبع شفتيه

عليه.

قالت في بساطة:

– "سيلستين" في انتظاري للعشاء .

في الحال اقترح "يوكوسوف" :

– سنرافقك.

– شكراً. أفضل السير على الأقدام . وأنت يا "مانون" لا ترسلي لي الزهور لأن عمي سوف يفزع أمام مثل هذه الباقة ، لأنها تحتاج إلى حيز كبير!

هكذا كان ردها في رشاقة.

– بدت على هذا الحال ، لأنها بذلت مجهوداً حتى تبدو منبسطة . ثم أسرعت بالخروج . وفي اللحظة التي همت فيها بالخروج من الباب، سمعت ضحكات "بوريس يوكوسوف" المجلجلة.

– بالتأكيد عندما يكون الهدف السيارات فإن "زافييه ديبون" كفيل بكل شيء حتى بإرسال زهور إلى فتاة!

الفصل الثالث

نظرت "إليان" إلى الحصان وهو ينزل من شارع "دي فويور سان أونوريه" بخطى هادئة . كان عائداً ، بمفرده ، وديعا ، يتوقف أمام محطة الأتوبيس في انتظار الأتوبيس القادم . سوف يساعد على صعود الهضبة ثانية. ثم من أعلى سوف يحل من جديد، لكي ينزل ثانية.. وهكذا يقضي يومه في تكرار هذه الحركة..

تمتمت الفتاة وهي تراقب بعينيها مؤخرة الجواد وهو يتموج بانتظام، ويهز ذيله مثل بندول الساعة.

شعرت بالملل. وبدافع من شيء من الوسوسة، أرادت تجنب اتخاذ نفس الطرق التي سلكتها في الصباح. بالإجماع كانت لا ترغب في العودة. اتخذت الاتجاه المضاد: الشانزليزيه أخذت تتسكع قليلا وسط

الجموع التي تسرع نحو باب المعرض الدولي بميدان الـ"كونكورد" وجبة "سيلستين" سوف تنتظر هذا بالإضافة إلى أنها لا تشعر بالجوع.

في "رون بوان"، شاهدت مرور طاقم الكونت "بوني دي كاستيلان": عربة ذات خيول مزدانة بشارات وورود حريرية. أما الخيول ذاتها وهي ذوات شعر لامع وعفرة ممشطة جيدا وحدوات براقة -كانت منتصبة الرأس عالية، وتسير في خطوات منتظمة.

لأول مرة، شعرت القروية بوخز في قلبها عندما تذكرت هذه الثروات الضخمة، هذه الأسماء اللامعة التي لأولئك الأرستقراط ومنهم قد يختار "زافييه ديبون" زوجته. ثم هزت كتفيها إذ غيرت رأيها. "إن والده محتفظ به لأفضل نصيب.." هكذا كانت قد لمحت الماركيزة. كم أن هذه العبارة خالية من معنى الحب.

هل هذه الطبقة الشعبية تجهل السعادة تماما؟ مسكين يا "زافييه" لقد تخيلته حانيا وعاطفيا، لكنه ليس سوى محاسب.

لم تسع "إليان" إلى السيطرة على تيار أفكارها. نعم، لقد أحست بشعور عميق، ولقد تحدد مصيرها ومستقبلها، تم تحديده في ثانية، في اللحظة التي ثبت شخص مجهول نظره عليها. كانت لا تشعر بالخجل بنظرته عليها. أما ما قد يكون مخجلا -بالعكس- فهو الهرب، نقص الصراحة مع النفس. إن "إليان" كانت مستقيمة الرأي، فخوراً لكي تقوم بهذه اللعبة. كان الجرح عميقا: كان عليها أن تدرسه عن قرب، لكي يعالجها بأفضل ما يمكن.

صعدت بسرعة نحو "أرك دي تريومف". بعد قليل سيكون الظهر، وسوف تخلو الحدائق من الأطفال الذين يعودون إلى منازلهم، بصحبة مربياتهم، وهم ممسكون بالبالونات أو يدفعون بالعجلات.. وفي الشاليهات الصغيرة التي تحدد الشارع الرئيسي، كانت البائعات المسنات يعرضن أنواع اللعب المختلفة، جالسات يناولن بعضهن الخبر.

أخذت تتجول بلا هدف محدد، وإذا بها تلمح أنها دارت حول نفسها: ها هي تعبر شارع "بيري" مرة أخرى عندما أقبلت نحوها عربة

أوتوماتيك.

لم تجد الوقت الكافي للتحقق جيدا مما حدث. ها هي ممددة وسط الشارع، لكنها لا تشعر بالم. إن السيارة لم تقلبها أيقنت "إليان" أن الفزع وحده هو الذي جعلها تتعثر. وها هي الجموع تتجمع حولها:

- هل جرحت؟

- لقد ألقت بنفسها تحت العجلات نسبياً.

- يبدو أن المشاة قد أعجبوا بالعجلات. أتظنين أنها حقيقة؟

ثم أسرع نحوها السائق:

- أنا لم ألمسك يا آنسة، أنا لا أفهم!

تمتمت "إليان":

- لم يصبني سوء. في إمكانك أن تنصرف في ارتياح.

ثم نهضت وأزاحت الغبار بيدها عن فستانها.

- وهذا ما أريده - أجاب الرجل- إني على موعد مهم جداً.

ودون أن يبدي أي اعتذار آخر عاد إلى مقعده، وهو يدعو فقط أن يفسحوا له الطريق، لأن الناس كانوا كثيرين.

- يا لك من غبي وكأننا نزعجك أكثر ما عليك إلا أن تتجه إلى الخلف!

انفجر صاحب السيارة:

- كف! لقد تأخرت. أنا لم ألمس الفتاة ولا السيارة. كذلك لم تحف حتى بها.

تفرقت الجموع، وانطلقت السيارة. أما "إليان" فكانت لا تزال مرتبكة ليس من تأثير الصدمة، إنما لأنها تسببت في الإزعاج. خلال ذلك سمعت "إليان" كما من خلال سحابة، التعليقات التي تم تبادلها حولها بشأن صاحب السيارة.

ولما اطمأنت بأنها ليست هي المقصودة، أي أنها ليست هدف الحوارات، عملت على الابتعاد عن أولئك الرعاع؛ وإذا بيد تستقر على كوعها. ثم سمعت صوت سيدة".

– يبدو عليك التعب، اسمحي لي بأن أصطحبك إلى منزلك.

أجابت بتلقائية ، دون أن تنظر إلى وجه محدثتها:

– شكراً لا داعي.

– إني مصرة على ذلك . في إمكاننا استئجار عربة.

حولت "إليان" رأسها . اكتشفت فتاة في مثل عمرها تقريباً تبتسم لها. قد لوحت الشمس بشرتها وشعرها – في الضوء الشديد – ذا اللون الذهبي . كانت ترتدي قميصاً بسيطاً من "الكوليكية" الأزرق وجيباً من التيل . بادلتها ابنة أخي العضو الابتسام . فهمت في الحال أن الفتاة المسكينة في حاجة إلى بعض المال وتتمنى أن يُستجاب طلبها . وجدت "إليان" أن تبادل حديث مع هذه الفتاة – خال من ذكر "زافييه" – قد يفيد في تهدئتها. قبلت "إليان" عرض الصغيرة ودعتها تطلب عربة.

عندما بدأ الحوذي في تحريك عصاه ، بدأت "إليان" بحديث عادي.

– إنها المرة الأولى التي أتخذ فيها عربة في غير صحبة عمي غير أن الأخرى . وكانت قسمات وجهها قد تقست فجأة قاطعتها بجفاف:

– كفى الأعيب يا آنسة "مونفور" ماذا عملت بالرسم؟

– الرسم ؟ أي رسم؟

– إنك تعلمين جيداً المقصود بذلك . لا أعتقد أنك تركته عند "ريفي" . إنه مازال معك!

– لا شك في أنك مخطئة.

ودون أن تترك لها وقتاً للمناقشة ، انقضت الفتاة عليها، كادت تمزق لها "البوليرو" التي تضعه:

– لا تعتقدي أنك ستفلتين ! لن أخشى من جعلك عارية يا لصة!

– وكانت لهذه الغجرية عضلات قوية أشبه بعضلات الرجال. في البداية قاومتها "إليان" في صمت وكانت مظلتها المعلقة بمعصمها تساعدها على أن تحمي نفسها من هجماتها العنيفة . سقط الكاب على الأرض، والمشابك التي تمسك شعرها حررته فعمل بذلك على

حجب الرؤية عنها أنّت:

– اتركيني !اتركيني !.

– أخذت الأخرى تكيل لها اللكمات

– لن أتركك إلا بعد الحصول على الورقة!

– أي ورقة ؟ ليس لدي ورق . إنك مجنونة.

– خذي الحذر لم تلحق بك هذه المرة إلا بعض الخدوش يا "إليان مونفور" ، لكن في المرة القادمة سوف توصلك سيارتنا إلى المستشفي

– إنه أنت ! لكن من أنت؟

– وإذا بها تصيح في هذه المرة . غير أن الحوذي تأثر لهذا الموقف . أوقف خيوله ومال إلى الخلف.

– ما هذا الهرج !هذا تعدٍ ! وبأي وجه حق يتم ذلك في عربتي! آه! لا عودي إلى رصيفك.

– انتهزت "إليان" الفرصة . قفزت من السيارة ، هربت . ولما همت الفتاة بملاحقتها ، هجم عليها السائق من مقعده وأمسك بمعصمها:

– بالإضافة إلى ذلك ، ترغبين في الهرب دون أن تدفعي؟

– لم تسمع "إليان" أكثر من ذلك ، لأنها كانت قد ابتعدت .

أخذت تجري – وقد علت الحمرة وجهها من الخزي– على غير هدى ممسكة بمظلتها بإحدى يديها، وباليد الأخرى قبعتها والإيشارب التل الذي أخذ يرفرف خلفها مثل السحابة . شعرت بأن المتنزهين يلتفتون عند مرورها غير أنه كان يبدو لها أنها لا تستطيع في موقفها هذا التصرف بأي شكل إلا بأن تجري في أي شارع يصادفها .

كانت لا تستطيع التوقف ، لكي تعيد تنسيق شعرها في الشارع أمام المارة . كما أنها كانت لا تستطيع الاحتماء تحت أي مدخل لكيلا تتعرض مرة أخرى إلى طرد بوابة لها.

وأخيراً تقدمت عربة في اتجاهها. ولما تأهبت لطلبها ، تعرفت على الحوذي الذي طردها منذ قليل. لقد فقدت شعاع الأمل الذي وجدته ، والدموع ملأت عينيها.

وعندما وصل الحوذي أمامها ،أوقف خيوله ، وقال بنبرة قاطعة:

– المعذرة يا آنسة . أنا لم أفهم موقفك ، هل ترغبين في الصعود ؟

لم تدعه "إليان" يكرر الطلب ، دخلت في العربة ، وألقت بنفسها على الأريكة المكسوة بالقطيفة الحمراء.

– غير أن "إليان" استعادت كل كرامتها عندما وصلت عند عمها. كان شعرها غير مثبت تحت قبعتها سوى بمشبكين لكنه مثبت كما أنها كانت قد أصلحت من هندامها على قدر استطاعتها. وإذا كانت وجنتاها شاحبتين أو قد علتهما الحمرة فمن الممكن ألا تلمح "سيلستين" شيئاً.

وبالفعل لم تلمح "سيلستين" شيئاً ، لأنها كانت تحمل في رأسها هموماً أخرى:

– لقد بدأت في تحمير اللحم ، ثم رفعته ، ظنا مني أنك سوف تتناولين عشاءك في المدينة.

– المعذرة يا "سيلستين". لم يكن من الممكن إخطارك ، لأنني لم أتمكن من رفض دعوة الماركيزة و.

– لا يهم . يجب أن أعتاد ذلك، لأن الشباب لم يعد كما كان عليه سابقاً يا آنسة "إليان".

على الرغم من أن الفتاة كانت في أمس الحاجة للذهاب إلى حجرتها حتى تجد راحتها ، تحاملت على نفسها وتدللت:

– تين ، لا يهمك إني أعشق اللحم البارد . أعدك بأني سألتهمه كله هذه الليلة ! هل مازلت متحاملة علي؟ لا، أليس كذلك؟.

تمتمت الخادمة:

– إنها ليست غلطتك . إن عمك مشغول دائماً، وكان ينبغي ألا يتركك لأهوائك

ثم ختمت كلامها بقولها .

– بالتأكيد لن تأتي إقامتك في "باريس" بما يسر.

ثم حوطت "إليان" بذراعيها وسط السيدة المسنة وطبعت قبلة ماكرة

على جبينها:

– أعدك بأن أكون عاقلة . سأدخل إلى حجرتي لكي لا أخرج منها طوال فترة ما بعد الظهر.

– السيد "أرماندد" يطلب مقابلتك في الساعة الخامسة.

قالت "إليان" هذه المرة:

– في مجلس الشيوخ أم لا ؟! آهلا!

– لا ليس في المجلس ! هنا. إنه في انتظار زيارة ، وربما يتأخر نصف ساعة. وهو يود أن تجلسي مع هذا الشخص حتى لا يقلق.

– عزيزتي "سيلستين" ما الذي تريدين أن أتحاور فيه مع هذا الشخص؟

– هيا ، لا تتظاهري بالتواضع . إنك كفيلة بتبادل الحديث عندما ترغبين في ذلك.

أردفت "إليان" خاضعة وهي متجهه نحو السلم المؤدي إلى حجرتها:

– على أي حال ليس لي الاختيار.

– وأخيراً ، عندما تواجدت بمفردها ، حاولت أن تلقي بنفسها على سريرها لكي تبكي ، تبكي في غير تفكير.

لكنها لم تسمح لنفسها بذلك، لأن عمها– بطلبه منها أن تستقبل الشخص الذي على موعد معه– يظهر لها مدى ثقته بها. كانت "إليان" لا تستطيع الظهور في المكتب بهاتين العينين المنتفختين وهذا الأنف الأحمر. ومنذ أن كانت هذه الفتاة في الكلية ، كانت زميلاتها يحسدنها على قوة إرادتها . عندما كانت توجه إليها الأسئلة على السبورة ، ليس هناك ما يفقدها وسائلها: لا تأنيب ، ولا تشتت في الذهن ، ولا آلام الركبتين إثر سقوط في الفسحة . كانت تتلو درسها بأفضل ما يمكن ، متحينة الفرصة كي تسمح بأن تنعي حظها.

وضعت مظلتها على حامل المظلات . انتزعت قفازها ، حلت الإيشارب التل المثبت بقبعتها ، وجلست أمام التسريحة .

كانت حركاتها بطيئة ، ذهنها فارغ ، سحبت المشابك التي تثبت

شعرها المرفوع وفكت أزرار "البوليرو".

وفجأة ألقت بردائها إلى الطرف الآخر من الحجرة. كان لابد لها من التخلص من كل الغضب الكامن فيها والذي يشوش أفكارها. تابعت بنظرها خط سير المقذوف التافتاه التي بلون القش.

وإذا بورقة تخرج منه، لكي تأتي وتستقر على السجادة.

أسرعت "إليان" إليها. وتوالت أفكارها بسرعة غير متوقعة.

إنها بالتأكيد الرسم الذي كانت الفتاة تعمل على استعادته لكن من الذي كان قد وضعه هكذا في ذلك المكان؟ وكيف لم يسقط عندما هجمت عليها الفتاة في العربة ؟

بسطت الورقة الصغيرة بعناية. إنه رسم بياني، خطوط مستقيمة، خطوط غير متناسبة تتقابل عند نقط محددةولها كلمة بلغة واضحة من الممكن أن يكون تسرب قطعة ميكانيكية بخيوط.

ظنت أنها فهمت، لكن كل استنتاجاتها كانت مشوشة.

أمسكت بـ"البوليرو وجلست على حافة السرير، وفحصته من كل الاتجاهات. كانت الخياطة مفكوكة على عرض كبير.

لاشك في أن "سيلستين" لم تنتبه وهي تقوم بكيه. والورقة كانت في هذه الفتحة لا شك في أن هذه الورقة على علاقة بالشيء الذي كان "نيستور" صبي "زافييه ديبون" هذا الصباح

وإذا كان الأمر يختص بخطة اختراع "زافييه"، فما هو الدور الذي لعبته هذه الفتاة العنيفة المعتدية، كانت "إليان" لا تستطيع تصديق أن الشاب الذي يبدو بمثل هذه الوداعة الذي كانت قد قابلته هذا الصباح، كفيل بأن يرسل هذه الفتاة الشريرة. لا يمكن أن يكون هو مخترع كل هذه التهديدات التي لحقت بها.

إذا كانت الماركيزة قد أحسنت القول- وهو ما كانت الفتاة مقتنعة به- كان الدوق - قبل كل شيء - يرغب في استخدامها كواسطة لدى عمها. ومنذ ذلك الحين، كان كل اهتمامه هو أن يبدو لها ممتعاً، أن يعمل على إغرائها، وهو ما أجاد القيام به، أما الباقي غير أنه كان هناك

ثمة شك قائم. لقد بدا كل من مدام "دي سان ليجيه" والأمير "يوكوسوف" لاذعاً بالنسبة لمصادفة هذا اللقاء. ولم يكن لـ "إليان" ذاتها أي دليل على هذه الأفكار. وإذا كان "زافييه" قد تبعها، وإذا كان قد سبق الأحداث التي مرت عند زاوية شارع "ميسين"، اللص، "نيستور"، موصل الحمامات إلى المنازل لا إنها مواقف رومانسية.

رومانسية أم شيطانية ؟. وإذا كانت شيطانية فإن مخرج مثل هذه المساخر، موهوب لكي يكون البقية: السيارة، الشقراء، العربة ذات الخيول.

وعلى المدفأة، رنت الساعة الرابعة والنصف. نهضت "إليان". أعادت طي الورقة. فكرت في إعادتها إلى الدوق "ديبون". ثم عدلت عن رأيها. لم تعد كل هذه التهديدات تخيفها. كانت ترغب - فوق كل شيء - في معرفة إلى أي مدى يستطيع التمادي. من أجل ذلك كان عليها أن تخفي هذا البيان، وأن تستمر في إنكار أنه في حيازتها .بينما الورقة هي التي أشارت إلى المكان الذي كانت مخبأة فيه.

فتحت الصوان، واختارت ما يجب أن تضعه في نهاية فترة ما بعد الظهر : فستان وردي يصل إلى الركبتين، تزينه أنواع من التطريز الراقي. راقبت بعناية الثنية، ثم ارتدت ملابسها، صففت شعرها ؛ دلكت وجهها بكريم سيمون، نزلت ووصلت إلى مكتب عمها في اللحظة التي كان سيدخل إليه الزائر.

سمعت صوت الخادمة المسنة خلف الباب:

- ابنة أخيه سوف تستقبلك.

ثم الرد عليها:

- في إمكاني أن أعود خلال نصف ساعة أم أقابل السيد "مونفور" مرة أخرى في وقت يناسبه أنا لا أرغب في إزعاج.

- أرهفت "إليان" السمع في قلق.

قاطعته "سيلستين":

– لا أبداً . هل ترغب في فنجان شاي؟

دخل "زافييه ديبون" المكتب ، فشحبت "إليان" . وأول فكرة أتت إلى ذهنها هو ألا تتواجد بأي ثمن بمفردها مع الدوق . كان من الأفضل أن تحتجز "سيلستين" ، أن تخترع حركة عدم الالتفات، كان تقلب فازاً، وأن تكسره . لا، كانت عاجزة عن الاقتناع بمثل هذه الحركات حتى لا تلغي نظام المكتب.

نعم ، أحضري لنا الشاي يا "سيلستين" . هذا إلا إذا كان السيد "ديبون" يفضل القهوة؟

وأثناء ما كان "زافييه" يبدي حركة جحود، انصرفت السيدة – الخادمة العجوز– وهي تحك رأسها لأنها دهشت عند سماع اسم الزائر، وعلى غير عادتها تركت الباب مفتوحاً.

وقفت ابنة أخي عضو مجلس الشيوخ شامخة ، مرفوعة الرأس، لكن غير قادرة على النطق. فكانت المبادرة لـ "زافييه".

قال بصوت دافئ عاملا على تعميق نظراته في عيني الفتاة:

– لم أتوقع أنك ستستقبلينني هنا يا آنسة .لي فترة طويلة وأنا أرغب في الحصول على مقابلة مع السيد "مونفور" لقد عجل لقاءنا هذا الصباح بالمشروع.

كان مبتسما كمن يقدم اعتذاره ، تلك الابتسامة التي أقسمت ألا تتأثر لها . أما حالياً، عليها أن تتكلم هي أيضا.

ضمت يديها ، وقسمات وجهها تقست أكثر .

قالت في شراسة:

– لا أرى علاقة في ذلك. هذا إلا إذا كنت ترغب في أن أتوسط لك في أمر ما؟

وكانت لهجتها باردة إلى حد جعل الدوق يتراجع ببضع خطوات . ولما لم تدعه للجلوس ، استند إلى المكتبة وبعد أن مرت المفاجأة شبك ساقيه في تراخ ، وأخذ يمرر أصبعيه على شاربه. فهمت "إليان" من هذه الحركة أن بوادر العداء قد فُتحت.

– إن لم أكن قد قضيت يومي في الميكانيكا ، لوجدت الوقت الكافي لكي أدرسك عن قرب . إنك نوع نادر. لم أر حتى الآن فتاة تكره الزهور إلى هذا الحد!

عندما تذكرت "إليان" باقة الزهور "الأوركيدية" التي كم ألهبت قلبها، في حين أن كل شيء كان خداعاً ، انفجرت :

– هل تعتقد أن الزهور تسترد كل شيء؟

صر "زافييه" على فكيه . للمرة الأخيرة توسلت عيناه طالبة السلم. على ما يبدو أنه كتم رداً منفرا. ولما رأى أن "إليان" مستمرة في فثورها حول نظره عنها وتظاهر بأنه يتأمل تمثالا ياباني صغيراً قبل أن يفحمها بقوله :

– دون أن أقصد طعنتك ، لقد سمعت أنها تشتري الكثير من الأمور.

"يا له من غبي" هكذا فكرت . لكنها ندمت على هذه الشتيمة ، لأنها رأت أنها لا تليق بها.

قالت :

– هذه كانت مشاعري بالضبط عندما استقبلت حاملة الباقة.

حك رأسه ، وكأنه أدرك أخيراً رد الفعل المر الذي لديها . غير أن "إليان" عندما لمحت ذلك، واصلت :

– لكن حركتك كانت بلا فائدة لأني كنت قد قررت الدفاع عن قضية سباق "باريس– دوفيل" لدى عمي.

أطلق ضحكة مثيرة :

– لا تقومي بذلك! بل اعملي على تثبته على فكرة أن السيارة ما هي إلا لعبة للعقول الضعيفة!

ولما كانت "إليان" معتادة حركة المنزل، لمحت خطى "سيلستين" التي كانت تغادر المطبخ . في الحال، تحققت من الموقف : ماذا سيكون تفكير السيدة عندما تراهما واقفين في نفس الوضع الذي تركتهما عليه؟ من البديهي أنها كانت ستجدهما في نفس الحجرة ، ولكن

جالسين أمام المائدة المنخفضة.

أسرعت بالقول:

– استرح أرجوك على المقعد ذي المساند.

اقتربت خطوات "سيلستين" و"زافييه" فهم في الحال. كانت الفتاة قد جلست على كرسي، منتصبة. أتى وجلس في مواجهتها من الجانب الآخر من المائدة. بادلته "إليان" – في غير انتباه – الابتسامة وفجأة عاد وجهه إلى منظره الطفولي. وكأنها كانت قد همست: "سوف يعنفونك" والشقاوة كانت تناسبها تماماً.

وضعت السيدة المسنة الصينية بينهما، وهي تراقبهما الواحد بعد الآخر.

– لن يتأخر سيدي. لقد تعرف القط على خطوات الخيول.

هكذا قالت مؤكدة قبل أن تختفي.

أبدت "إليان" سرورها في صب الشاي في الطاقم الـ "سيفر" القديم الفاخر الذي لا يستخدم إلا في المناسبات الكبرى. كانت قد عزمت على ربك الدوق.

سألته في جفاف:

– بذلك فإنك لست في حاجة إلى خدماتي؟ ربما أنك رافضة فكرة هذا السباق؟

– على الإطلاق! لي نية القيام بذلك.

– حقاً؟ ألا ينقصك شيء للاشتراك في هذه المسابقة؟

دهشت هي ذاتها لهذا الهدوء الذي لمحت به إلى تصميم الموتور.

– نعم، تنقصني ورقة. قطعة ورق صغيرة.

وابتسم بشكل غريب. ارتجف القدح في يد "إليان". لكن كان من الصعب تحديد أي موقف. لقد دخل "أرماندد مونفور" حرجاً. اعتذر عن تأخيره وأكد صدق سروره بلقاء الدوق، الذي كان قد أوصاه بالطيار "سانتوس ديمون".

وإذ ارتبكت "إليان" للاعتراف الأخير الذي أدلى به الشاب. أخذت

تراقب موقف عمها.

وإذا فجأة بصوته يرتفع. وها هو وجه عمها قد علته الحمرة من الغضب:

–سيدي تقدم لي من قبل صديقي السيد "سانتوس ديمون"، وأنت على يقين بما أوليه من اهتمام لتقدم المنطاد؛ وهانت تحدثني عن السيارة الأوتوماتيكية.

– دون أن أتعرض لمضايقتك، الاختراعان مرتبطان إلى حد كبير. إننا نعمل معاً السيد "سانتوس ديمون" وأنا في مشروع موتور كيف أعبر موتور "متفجر" نافع لكل من الاختراعين.

– لا! إنهما متناقضان! أحدهما سيفيد "فرنسا" والآخر سيعمل على هدمها. يوم أن يحتاج الوطن إلى جنود فسوف يضطر إلى البحث عنهم في المقابر التي ستعمل حينئذ على إقامتها على حافة الطرقات من أجل سائقي السيارات!

ثار "زافييه" متحمساً:

– صدقني، يا سيدي العضو، إن سيارة بلا خيول ستكون ضرورية للقرن العشرين. في النهاية، فهي وسيلة انتقال لن تحتاج إلى طبيب بيطري للعناية بها.

رغما عنها، أعجبت "إليان" بالأسلوب الذي استخدمه الشاب في إقناع عمها، وكانت هذه فكرتها أيضاً. ابتسمت بمرارة للآمال الواهية التي داعبت قلبها هذا الصباح.

لا شك في أن الدوق سيتزوج من "نصيب جيد" ولم يعد لذلك أهمية. ومن الواضح أنه ليس في إمكان أي فتاة أن تحتل في حياته المكان الذي كرسه للميكانيكا.

شعرت بضيق إزاء هذه الأفكار المتناقضة، فانسحبت سراً، بينما كان عمها يواصل دفاعه عن فكرته.

الفصل الرابع

رفعت "إليان" في هدوء الستار السميك عن النافذة.

كان الرجل ذو الكاسكيت مازال واقفاً على الجانب الآخر من الشارع، وكان شاخصاً إلى حجرتها . ولم يعمل على أن يختفي حتى أنها شعرت بأنه يوجه إليها ابتسامة.

إنه شاب، عيناه غائرتان وكذلك وجنتاه . فهمت الفتاة – عندما رأته– أنه يترقبها ، ولما كان شعره الأشقر مماثلا لشعر فتاة العربة ، استنتجت في الحال أنه يلاحقها من أجل نفس الهدف: استرداد الورقة.

ها هي الفتاة ، ابنة أخي العضو لم تغادر المنزل عدة أيام. لم يكن عن خوف من مواجهتها لهذا الرجل الذي تآلفت معه، لكنها كانت – فوق كل شيء– تخشى الفضيحة ، كما أن الخجل مازال يقلقها لفكرة أنها أخذت تجري في شوارع المدينة ، تاركة شعرها للريح . لو كان قد تعرف عليها أحد ما ، للحق بها الخزي مدى الحياة ، وكان عمها سيعيدها فوراً إلى "ميريبل".

أسقطت الستار . لا شك من أن الساعات الطوال التي أصرت على قضائها أمام النسيج الذي كانت قد بدأته ، عملت على منحها السكينة ، لكن لم يلق الضوء على أي نقطة من النقاط التي كانت تقلقها . ولقد حان الوقت لمواجهة الحقيقة . إذا كان الشاب مهذباً فستمر الأمور في بساطة . سوف تنزل عنده ، وتوجه إليه في الحال أول سؤال : "ماذا ترغب"؟ وبالتأكيد سوف يجيبها : "الرسم". حينئذ تسأله : "من أرسلك"؟

وبعد ذلك يكون في إمكانها حسم الموقف . إذا كان "زافييه" هو الذي أوفد إليها أولئك الرعاع لكي يخزيها ويقلل من شأنها ، فهو أكثر من قابلته في حياتها خسة.

تنهدت . هل هي في حاجة إلى إثباتات إضافية ألم يخبرها "زافييه" أنه تنقصه ورقة . "قصاصة ورق"؟.

كيف تتردد الآن في إدانته لهذه الاعتداءات التي لحقت بها؟

لماذا – عندما كانت أناملها تمر على قيثارتها– لم يبق لها سوى نظرته الحانية التي تمحو الشكوك ، وتدعها هكذا متأرجحة على هذا النحو على الأوتار التي تلعب عليها أصابعها المرنة؟

عندما تذكرت هذه الآلة التي تعزف عليها أكثر من البيان ، هزت رأسها كمن تعمل على طرد فكرة شريرة . اعتقدت "إليان" – بعد زيارة "زافييه" لعمها– أن في وسعها الحصول على الهدوء عن طريق العزف.

ظناً منها أن الموسيقي سوف تؤثر عليها . وبدافع من حكمتها كانت قد أرسلت "سيلستين" لكي تحضر لها قطعة من أشغال الكانفاة ذات مقاييس كبيرة . وها هي تضايقها.

ولما شعرت بأنها غير قادرة على البقاء على هذا النحو في شرفة المنزل ، ها هي ساعة الانطلاق قد حانت.

جمعت بين القرار والتنفيذ ، ووضعت "البوليرو" الذي من الجبير، وثبتت شعرها على شكل شينيون ، ووضعت فوقه قبعة من قش الأرز مزدانة بأجنحة الطيور بريش طبيعي.

تأكدت أن الشخص المجهول مازال واقفاً في مكانه ، ثم تناولت حقيبتها ومظلتها ، ألقت نظرة رضا إلى المرآة التي عكست لها قوامها الرقيق . ثم اجتازت الباب بخطى واثقة ، مستعدة لمواجهة أسوأ التجارب.

نزلت السلم في رشاقة شبه مرحة ومطمئنة . لم تلمح عمها الذي وقف جامداً ،وجهه معبر عن القسوة ، واضعا قدمه على أول درجة سلم، ومرر يده بعصبية على كرة الدرابزين النحاسي .

– صعدت لكي أتحدث معك. هل كانت لك نية الخروج ؟

– لي عدة أيام لم أر خلالها الماركيزة "دي سان ليجيه" وسوف تبعث زيارتي لها بالسعادة في نفسها .

حينئذ انفجر العم:

– فلنتحدث عن "ماركيزتك"!

وإذ صدمت ، تمتمت:

– إنها صديقتك، ولم أتوقع أن أسيء إليك بذلك .

– اسكتي يا تعيسة ! تتآمرين لكي تجعليني مضحكة "فرنسا" !

ثم لوح تحت أنفه بجريدة أسبوعية . وعندما تعرفت "إليان" على الصحيفة الـ "إلستراسيون" فهمت في الحال .

لا شك في أن صورة "كينستان بوزون" منشورة فيها . كم من الأحداث عملت على إرباك حياتها في ذلك اليوم حتى إنها غفلت تماماً عن هذه الدقائق التي وقفت فيها أمام السيارة الـ "بانهارد ليفاسور" . ولما فوجئت، قالت:

– آسفة يا عمي . إني حقا آسفة.

– اغرورقت عيناها بالدموع . بهذه الكلمات ، أنكرت "إليان" عزمها على حسم الموقف مع العم ، أن تدافع عن الخطة التي يرفضها . كم شعرت بأنها قوية قبل ذلك بأسبوع كم أنها كانت غبية لأن تلتهب بمثل هذه السرعة ! والآن وقد حانت ساعة المقاومة من أجل اقتناعها لأنه على الرغم من كل شيء ، كانت تؤمن حقاً بنجاح الأوتوموبيل (السيارة) . انهارت عزيمتها بسبب عدم تبصر الدوق "ديبون" . كما أن ثورة عمها كانت تجعلها تثور على نفسها . اعترفت – داخلياً بأنه بنزولها لكي تتحدث إلى الشاب الذي يترقبها كانت تأمل المستحيل ، كانت متوقعة أنه سوف يجيبها : نعم إني أريد استعادة الرسم الذي معك ، لكني لا أعمل لصالح "زافييه" ، لأني لا أعرفه" .

لم تكف "إليان" طوال هذا الأسبوع الذي ظلت فيه حبيسة المنزل عن تبرئة "زافييه" في نظرها.

لقد أعادها هجوم عمها إلى الحقيقة . ولم تعد قادرة على إنكار ما هو بديهي : الرسم الموضوع في ثنية فستانها، لا يمكن أن يكون ملكاً لأحد سوى "زافييه" وهو وحده الذي دبر كل هذه الوسائل الشريرة لإعادته.

أخذ "أرماند مونفور" يذهب ويجيء بطول وعرض المدخل يضرب بالصحيفة الأسبوعية التي بيده:

– بالضبط في اللحظة التي كان ينبغي أن أبدي رأيي فيها ضد السباق الذي يعد! حديثي معد ، ولقد علمت أن مقر العمده في "نانت" سيكون عامراً وأولئك الذين حجزوا أماكنهم يتبادلون هذا من يد إلى يد مرددين : إنها ابنة أخي عضو مجلس الشيوخ !. هأنا أسمع ضحكاتهم من هنا وسخريتهم أيضا! ولقد كنت حريصة على كتمان الأمر عني. هيه!

اضطرت الفتاة إلى الكذب عندما خجلت :

– لم أكن أعلم أن هذه الصورة سوف تنشر في الصحف.

أبدى حينئذ حركة ازدراء .

– بذلك أنت بلا لوم! لو أنك أخبرتني بأنك قمت بذلك عمداً لكي تقاومني ، كنا سنتناقش مثل خصمين وبدلاً من ذلك هأنت تعترفين أمامي بأن ابنة أخي ليست سوى صبيةً!

أترغبين في أن أخبرك بأنك تشبهين أخي. ترغبين في إرضاء الجميع ، وتغرقين الجميع في الكساد!

– أرجوك .. لا تتهم والدي بمساوئ ، أنا مسؤولة وحدي عنها

– إن والدك مجنون ، لم يفكر لا في مستقبله ولا في مستقبلك .

في الوقت الذي كونت فيه مستقبلي ، كان هو مازال يعيش على الحب والماء القراح – في المقاطعة – مع والدتك المسكينة .

هاهو التأنيب اتخذ مساراً آخر ؛ لأن "إليان" التي كانت حريصة على احترام والدها، لم تقبل قط أن أي شخص كان أن يسيء إلى شخصيته أمامها.

نطقت بالآتي وقد شحبت من الغضب المكتوم:

– نعم ، لقد أحب والدي والدتي وهو ما زال يحبني لأن الموت لم يعرف مشاعره . لكنك أنت لست كفيلاً بأن تحب. كل ما يهمك هو مركزك والخوف من أن تغلق في وجهك أبواب مجلس الشيوخ . إن من يسمعك في دفاعك عن العربات ذات الخيول يحكم بأنك تحب الخيول، لكن ليس من يجهل أنك تدافع فقط عما تمتلكه من أعمال عند

"بارليت" والـ "ثاثيرسال"!

وقف عضو مجلس الشيوخ صامتاً مستنداً إلى حاجز خشبي وهو من خشب الورد . ومن كثرة لعبه بحاجبيه الكثيفين ، سقطت نظارته ، وتدلت في طرف سلسلتها على الريدنجوت الأسود.

ولما رأت "إليان" عمها الهادئ بطبعه ، وقد علت التجاعيد وجهه فجأة ، ندمت على ما أبدته أمام عمها من ثورة كامنة فيها منذ لقائها "زافييه" .لكنها لم تتمكن من تمالك نفسها . وأثناء هذه المناقشة الحادة، اخترقت ذهنها فكرة جديدة. رغبت في العودة إلى "ميريبل" وأن تنسى كل ذلك .كان لابد من أن يطردها عمها ، وأن تعود إلى منزلها الهادئ ، الغابة والأشجار المعمرة .

رفعت ذقنها في تحد:

– هذا إذا كنت لا تحب حقاً الماركيزة "دي سان ليجيه"؟

سألها بنبرة عادية:

– وهي التي دفعتك إلى التصدي لي؟

– آه.. لا على الإطلاق ، لا شأن لها في الأمر!

كانت "إليان" أثناء تفوهها بهذه الكلمات تصيح بكل نبرات الصدق. في هذه المرة ، الشفقة هي التي دفعتها إلى الكذب .

كانت خير من يعلم قيمة الماركيزة عند عمها ، لأن بظهورها معه فهي تمنحه شهرة.

رويداً رويداً فهمت "إليان" أن الصداقة القائمة بين الماركيزة وعمها ليست سوى عنصر ضروري لوضعه الاجتماعي أي وضع "أرماندد مونفور" عضو مجلس الشيوخ في نظر الرأي العام.

خشيت أن يقطع هذه العلاقة– تحت تأثير هذه الموجة من الغضب وهو ما كانت ستندم عليه كثيراً في اليوم التالي.

كررت بصوت منخفض:

– أتوسل إليك يا عمي لا تتهم مدام "دي سان ليجيه"!

– لست متحاملاً عليها . سأتصل بها في الحال .

امتنعت "إليان" عن الابتسام . لم يكن الاتصال الهاتفي بغرض الأعمال الجادة أبداً . لو كانت فكرة قطع العلاقة أتت على ذهن العضو، كان يأمر بإعداد العربة لكي يحمل خطاباً شديد اللهجة ، لكنه على أي حال استخدم التليفون .

وكانت "إليان" واثقة بأنها كصديقة ستعرف كيف تهدئه. بدا– وهو واقف أمام التليفون المثبت في الحائط – متردداً ، ثم مرر أصبعاً على اللوحة لكي يرفع الغبار ،ثم أدار المحرك الذي يوصله بالآنسة المسؤولة .

ولما سمع رنيناً مدوياً في الحجرة ، أسرع "أرماند مونفور" برفع السماعتين في آن واحد ، وصاح بأعلى صوته:

– آلو، آلو، أعطني خطاً يا آنسة عند مدام "دي سان ليجيه" .ولما تعذر عليها سماع الاسم ، قام بهجائه لها .

– آلو "باتيست" ؟ نعم .. إني مستمع هنا "أرماند مونفور" مدام الماركيزة هنا؟ نعم آه.. لا!

– آه .. لا تقطعي الخط ! المكالمة معي !

ثم تمتم من بين أسنانه :" يا لك من مجنونة " .

– "آلو، آلو كيف؟ آه. هذه الكلمة هل سمعتها ! من أجل ذلك التليفون يعمل ! إذا أبديت أي سفاهة ، فسأقدم ضدك شكوى!

– " آلو؟ أخيراً أنت ! المعذرة يا صديقتي العزيزة هل رأيت جريدة الـ "إليستراسيون"؟ إني ثائر أحذرك من الإنكار كيف ؟ لا، أنا لم أقل : إني أدعوك للعشاء آه، ثم إذا .. هذا ما قلته . إني أحذر "سيلستين" .في إنتظارك في الظهر . ماذا تقولين .. آه . الأمير "يوكوسوف"! . نعم تعالي مع من ترغبين فيه!ثم أخفض السماعات حول نظره نحو ابنة أخيه وكان وجهه قد علته الحمرة من الضيق.

و"إليان" تفرست فيه دون أن تنطق بكلمة.

أسرعت "سيلستين" بإرسال الخوذي لكي يأتي بـ "ميت" ابنة بواب "مومارتر" وهي عاملة نظيفة ، تمكنت من الحصول على شهرة صغيرة لتنقلها للعمل هنا وهناك . لحسن الحظ ، كان فني الفضيات قد مر

لكي ينظف الأطباق وأدوات المائدة قبل ذلك بيومين ، وكان هناك ارتباك – طوال ساعتين – في حجرة الطعام ، حجرة دائمة الكآبة . كان العضو قد أمر بوضع الشمعدانات حاملات الشموع ، واستبعاد المصباح الذي يضيء المائدة في المعتاد بالبترول ، والزهور الموضوعة في كل مكان. وجمعت "ميت" من الطبقية، الأطباق التي من برلين ، كل ذلك منح هذه الاستعدادات مظهر عيد أو حفل .وعلى الرغم من أن "أرماند مونفور" كان قد شعر بالاسترخاء ، إلا أنه يظهر إلى ابنة أخيه موقف العداء والحقد ، ولم تكن هذه من عاداته . وأكثر من مرة أرادت "إليان" أن تقبله ، لكنها وجدت أنه من الأفضل أن تدع الفرصة للساعات القادمة . كانت تتوقع أن يختفي أي إحساس بعد انتهاء الوجبة .

عندما وصلت الماركيزة وبرفقتها "بوريس يوكوسوف" كانت مبتهجة، لأنها لم تفاجأ بالأمر . كان واضحاً أنهاكانت منذ فترة طويلة قدرت ردود الفعل المحتملة لدى عضو مجلس الشيوخ عند إعلان الصورة ، وكانت قد أعدت دفاعها منذ أمد بعيد .

ولا جدال في أن يطرح أحدهم أثناء الوجبة مواضيع أساسية. لكن الأحاديث العادية هي التي رافقت الوجبة اللذيذة ، ومنها اللحوم الباردة والساخنة ، الخضراوات على مختلف أصنافها ، وكلها شهية ، دون أن تُذكر كلمة "سيارة أوتوماتيك" .

– وأثناء ما كانت "سيلستين" تحمل الديوك الرومي المحمرة ، أعطت لا إراديا – إشارة الانصراف.

أعلنت :

– يبدو أن "مونجاريه" خياط الجلد بالإليزية قد رفت .

وعندما انسحبت ، أعلن سيادة العضو بعد فترة صمت :

– نأمل أن تكون لحكومتنا الصراحة الكافية للتعبير عن العرض السياسي!

قال "يوكوسوف" بصوته الرنان:

– يقال إن حظائر الرئيس مقر للقومية .

– من السايس إلى البيطار ، الهوى هو الميكانيكا : هذا كله .

هكذا سخرت الماركيزة في أسلوب لطيف ، متوجهة به إلى "أرماند" .

استطرد هذا الأخير:

– لن تفلحي إذا حاولت أن تبسطي أساريري ، لأني أرى في ذلك خزياً!

– إن مساعد البيطار– وهو "نيستور" – قد أضله السيد "ديبون"الذي يدعي أنه سينال مني موافقة لسباق"باريس– دوفيل"!

عندما سمعت "إليان" اسم الدوق – وقد علت الحمرة وجنتيها – أخفضت عينيها على طبقها.

لحسن الحظ ، لقد حالت الجدية التي دار بها الحديث دون الالتفات إليها .

ثم أردف الأمير المفخم :

– المعذرة يا سيدي العضو . إنك مخطئ . كم أني أرغب في أن تهتم بتيسير سوق من السيارات الأوتوماتكية للغجر ، عن فرنسا

– إذا وافقت ، فإني بذلك أنكر ذاتي، ببساطة لن أجرؤ على التعليق على تصرفك هذا يا سيدتي بنشر هذه الصورة ..

قاطعته الماركيزة بوضع يدها ذات الخواتم الماس على أصابع صديقها:

– أيها العزيز "أرماند" ، كم أني أفضل فرصة أخرى مواتية أكثر من ذلك ، لوضع حد لهذا الخلاف معك مهما كان ضعيفاً . وسوف يسعدني أن تمنح أذناً مصغية لعرض "بوريس" .

في هذه اللحظة المحددة ، لم يكن اقتراح "بوريس" هو ما تشير أو تلمح إليه مدام "دي سان ليجيه" .

مال الأمير على "إليان" ، يستنشق عطرها ويتوق إليها ، عارضاً عليها نزهة على مركب استكشاف.

إنك لا تعرفين ابتسامة الخياطات المشرقة ، عندما تنحرف أيدي المحارب إن فرحة الشعوب.

تلهب كياني . تعالوا شاركوني هذه الحمى . سوف نصعد نهر السين من "شارينتون" إلى "سيريسنيس" بين الطلاب والشابات المتحررات ، مجد في الزوارق .. دعني أساعدك على اكتشاف أفضل المسرات للشعب الضعيف .

قاومت "إليان" حتى تبعد نظرها عن الشفتين اللتين تعملان على سحرها .

– المعذرة يا سيدي– لم أعتد الخروج إلا في صحبة طيبة .

تلى كلماتها الواثقة سكون تام . وكان الحوار بين الماركيزة وعمها . وكلاهما حول نحو الفتاة وجها مستفسراً .

عمل الأمير على قلب الأوضاع . أبدى ابتسامته العريضة ، وعمق النظر في عيني العضو العبوستين :

– مادمت غير مستعد لمنحي مسابقتك ، فسوف أطلب مشورة الملكة "فيكتوريا" .

في الحال نسي "أرماند مونفور" ابنة أخيه .

– لن أكون "فرنسياً" ، إذا ظللت غير مبال بهذا النوع من النصب بالتهديد – هكذا أردف بين الرضا والقهر أي ما بين بين .بالإجماع هل ترغبون في جعل رفضي خيانة للوطن .

وعلى الرغم من محاولة "أرماند" الاحتفاظ بلهجته الساخرة ، لم يفلح تماماً في إخفاء أنه طعن من هذه المداعبة . أما الأمير فقد غير رأيه بشيء من المرح السخيف . ومدام "دي سان ليجيه" .

أكدت :

– "بوريس" يمزح . يا صديقي كن لطيفاً ، استخدم هذا الأسلوب بعض الشيء .

سعد سيادة العضو بأن تغلب على ثورته ، رفع في رقة زجاجة الشراب التي كانت "سيلستين" قد وضعتها إلى جانبه على صينية من الأبنوس .

استطرد :

– حسناً – في هدنة من المزاح – إنك تحرجني يا سيدي . لقد تعهدت بالإدلاء برأيي في مؤتمر "مانت" الأسبوع القادم ، وموقفي واضح : إن السيارة الأوتوماتيك ليست سوى مزاح جاف .

– إن رائحة البنزين مثيرة ، وهي نفاذة ، وتصل إلى الأنف على بعد كيلو متر . هذا بالإضافة إلى أنه إن لم يتخذ الحذر فإن هذا الجهاز سيدفع بنا إلى هدم حصون "باريس قاطعته "إليان" :

– كما أنها لم تمنع الروس من الوصول في "٧"

ولما خجلت مما وجهه إليها عمها من تأنيب ، كانت قد عزمت على عدم التدخل . كانت قد تابعت هذا التبادل الاجتماعي ، وكأنها لم تهتم به قبل ذلك . لكن موقف عضو المجلس المتشدد أغاظها .

انفجر هذا الأخير قائلا :

– إنها مؤامرة حقيقية إذن ! ما شأنك بهذا الاختراع الجديد؟

– إن كل ما يهم الشباب هو المرح واللهو! السيدات يرتدين البنطلونات الشورت لركوب الدراجات ، ولقد رأيتهن جالسات بمفردهن في إحدى شرفات "بولوني" ! فكري قليلاً : إنكم تعدون "فرنسا" بلا دفاع وبلا قيم ... وإن لم يكن بلا "باريس" التي سوف تبتلع قريباً في أحد الأنفاق المختصة بالعاصمة .

لم تكن "إليان" قد لمست بعد طبق الكبدة ولا الخرشوف ، عندما رفعت "ميت" المائدة . كانت مستغرقة في التفكير في والدها . كيف يحدث أن يكون الأخوان مختلفين على هذا النحو ؟

– إنك ضد ما هو مختص بالعاصمة أيضاً؟!

هكذا أبدى الأمير الروسي دهشته .

– أنا ضد الجرائم . سوف يتسبب ذلك في ضحايا أكثر من ضحايا مذابح "سان – بارتيليمي" ! أنا لا أتحدث عن ركام الأرض الذي سوف يبتلع مئات العقارات ، إنما عن خروج الفئران . هكذا تتوقع وباء لا يقل في خطورته عن الذي اجتاح لندن عام ١٦٦٥ !ولكي تعمل على تهدئة الموقف ، تظاهرت الماركيزة بالغضب في حركة لا تقاوم :

– "أرماند" يا صديقي العزيز ، أراك متشائما هذا بالإضافة إلى أنك أهملتني بعض الشيء في هذه الأيام الأخيرة ، وأنا من كنت معتمدة عليك لاصطحابي في الافتتاح.

توقفت عندما ظهرت "سيلستين" التي وضعت على المائدة حلوى مثلجة على شكل قنبلة على الطريقة الروسية، ومعها جاتوه مكسو بالسكر . فما كان من "بوريس يوكوسوف" إلا أن أطلق صيحة إعجاب قوية جعلت سيادة العضو يبتسم.

صاح وهو ينهض :

– اسمح لي أن أقبل طاهيتك . كنت أردد عن يقين : " إن المرء لا يتناول طعاماً جيداً إلا في "فرنسا" . وحاليا سوف يكون قولي : إن المرء لا يأكل جيداً سوى عند السيد "مونفور" !

– ذهلت "سيلستين" عندما رأت أن وزنها الذي يبلغ ثمانين كيلو جراما يرفع من على الأرض مثل الريشة . وعندما استردت أنفاسها ، ألقت إلى السيد "أرماند" نظرة عتاب، وخرجت وقد علت الحمرة وجهها من الخجل ، لكنها كانت مرفوعة الرأس.فما كان من الماركيزة و"إليان" إلا أن انطلقتا في الضحك .

وتذوق الجميع الحلو ، وقد عاودهم المزاج الحسن . غير "إليان" هي التي كانت لا تشعر بالارتياح – إذ إنها كانت معتادة المواقف الواضحة – كانت لا تزال صامتة غير راضية عن هذه الوجبة التي انقضت في جو صامت ، لم يتم فيه اتخاذ أي موقف ولا أي عرض سواء لكي يقبل أو يرفض .

أحاديث وحوارات بلا لون! تساءلت الفتاة عما سوف يتبقى بعد ذلك إن لم يكن هذا الإحساس المهتز غير الواضح

أردف "مونفور" :

– لم أقل قط إني لن أتوجه إلى الافتتاح . بل سوف أسعد لمرافقتك لي. وبما أني سوف أواجه بعض المسؤوليات سأعهد لك بابنة أخي.

– وهل أنا ملزمة بذلك ؟

– بالتأكيد ! لقد أرسلك والدك إلى هنا لكي تكتشفي الحياة الباريسية : الـ "مترو بوليتان" يشكل جزءاً منها وبالتأكيد لن تجدي فرصة التواجد في هذا المكان أبداً!

الفصل الخامس

لم يتحدث "أرماند مونفور" بعد ذلك عن الصورة الفوتوغرافية المعرضة للشبهة . لابد أن تكون مدام "دي سان ليجيه" قد حصلت على عفوه . ومنذ ذلك الحين كفّ عن التحامل على ابنة أخيه.

كانت المناقشات في مجلس الشيوخ حامية ، ملتهبة . وعندما عاد في وقت متأخر من المساء كان لا ينشد إلا الراحة.

أما "إليان" فكانت قد عادت إلى قيثارتها . وكان يسر لسماعها عند انتهاء الوجبة قبل بلوغ حجرته.

أما "إليان" فلم تتفرج أساريرها. لم يعد الشاب الأشقر ذو الكاسكيت يقف تحت نافذتها . وعندما لاحظت غيابه للمرة الأولى ، اطمأنت : لقد رفض الدوق "ديبون" هذا الأسلوب المخزي . ثم – مع مرور الوقت– ترك الاطمئنان المجال لعصبية شديدة : هل "زافييه" يسعى إلى خطة أخرى ؟ هل قرر المجيء عندها لكي يمنحها تفاصيل عن تصرفه، ويطالبها بالرسم بصوت قوي؟ لكن – بالتأكيد– بناء على ما أدركته من أنهما : عمها وهو قد افترقا في فتور ، لن يجرؤ على العودة إلى المنزل بالتأكيد . لكنه سوف يجد وسيلة لإعطائها موعداً. على ما يبدو أنه يعرف الماركيزة والأمير "يوكوسوف" وهو يعلم أيضاً أنها تتردد عند "مانون ريفي" .

انتظرت "إليان" وذات مساء – في حجرتها – كانت قد أعادت خياطة ثنية فستانها وفردت الرسم . فحصته بتدقيق فلم تجد له معنى أو على الأقل لم تفهمه . ثم أعادت الورقة إلى مخبئها .

لم يظهر "زافييه" . غضبت الفتاة عندما لاحظت أنها نادمة على

غياب المجهول الذي راقبها خلال الأيام السابقة ، لأنها كانت قد اعتادت وجهه . اكتشفت - ثائرة - أنها شبهت الشخص الذي يتعقبها بالشاب الذي ألهب مشاعرها رغماً عنها . قاومت بكل قواها استسلامها للحزن . وما كانت تمقته بالأكثر هو هذا الميل للنورستانيا ، الميل إلى هذا الطابع الذي يسود الطبقة الراقية . كان والدها قد جعل منها فتاة متحمسة قادرة على المقارنة . ولا ينبغي أن يجد فيها بعد عودتها من "لندن" فتاة مسكينة متخاذلة . على أي حال ، إنها حريصة على منحه عكس مشاعرها على البطاقات التي ترسلها إليه . والتي حررتها في هذا الصباح كانت مسطرة بالآتي : " شكراً لأنك جعلتني أولد في عصر يبهجني فيه كل يوم العلوم والتكنولوجيا الحديثة ولا يوجد اصطدام شديد مع العم "أرماند" ها هي "سيلستين" تعد مربى التوت التي تصل رائحتها حتى المخازن . أحبك . "إليان"

ثم نهضت وعزفت آخر لحن على القيثارة . أما عمها فقد طوى جريدته المسائية "ليي تان" رفع نظارته ثم نهض لكي يتناول صحيفته اليومية "لي فيجارو" من على المائدة المنخفضة . وكان من عادته أن يأخذ الجريدة معه إلى حجرته . وأقبل إلى ابنة أخيه لكي يطبع على وجنتها النضرة التي تقدمها إليه قبلة حانية :

- سوف ترسل لك الماركيزة عربتها لاصطحابك غداً . سأتوجه إلى "فانسين" مع وفد من مجلس الشيوخ ، وستلحقان بي هناك .

كانت "إليان" قد غفلت عن أن افتتاح الـ "متروبوليتان" سيتم في اليوم التالي ١٩ تموز (يوليو) .

- إلى "فانسين" ؟ هل علينا اختراق كل "باريس" في عربة تحت الأرض ؟ في نفق؟

- على أعضاء البرلمان أن يصبروا حتى نهاية باب "كابو" لكن بما أن "ميليران" سيجد وسيلة للاختفاء في المحطة السابقة ، وهي محطة الـ "الشانزليزيه" ، سيتصرف أغلبية المدعوين هكذا وبينهم مدام "دي سان ليجيه" وأنت سألته في شيء من الدهاء :

- ومن جانبك ألا تتحامل علينا لتركك على مسافة عشرين متراً تحت الأرض؟

- لا تقلقي بشأني ؛ سأكون محاطاً بالعناية جيداً!

جوادان من أفخر الخيول كانا يجران عربة الماركيزة . وطوال الرحلة لم تتمكن "إليان" من مشاهدة ملامح الحوذي إذ إنها كانت تجلس منتصبة وكذلك رأسها كان مستقيما تحت الغطاء الذي تضعه مثل خيولها . غير أن تعاملها كان مع الخادم ذي الزي الأزرق والقفاز الأبيض الذي أنزل أمامها درجة سلم العربة وعاونها على الصعود بجوار مدام "دي سان ليجيه" .

كانت الماركيزة ترتدي فستاناً من الموسلين الحريري، يظهر قوامها رفعت بيد رقيقة الوشاح ذا النقط السوداء الذي يعلو قبعتها ذات الزهور، وقالت لـ "إليان" :

- هل أنت مستعدة لمواجهة الفئران والظلام ؟

قالت هذا بدلاً من أن تقول لها : صباح الخير!

أجابتها "إليان" ضاحكة :

- الفئران لم تعد تخيف منذ أن أصبحت صالحة للأكل أو على الأصح ضمن ما يؤكل . إن ما أخشاه - أكثر من ذلك - هو انهيار المدينة على كتفي الهزيلتين!

- انطلق الجوادان عند سماع صوت عصا الحوذي . ثم بعد فترة صمت أبدت الماركيزة حركة عتاب :

- إنك لا تمنحينني كثيراً الإحساس بسروركِ لتواجدك معي . هل أنت غاضبة مني؟

حينئذ صاحت الفتاة!

- على الإطلاق يا سيدتي . غاية ما في الأمر لقد اعتدت الوحدة . ثم توقفت إذ أدركت أنها سوف ترتبك .

- كوني صريحة : ألست متحاملة علي لأني دفعتك إلى المثول أمام المصور "بوزون" أمام السيارة الفاخرة "بانهارد" .

– أرجوك . .لا تحكمي علي هكذا بقسوة. لقد حرصت – خلال هذا الحادث – على اتخاذ كل مسؤولياتي

أمسكت مدام "دي سان ليجيه" بيدي "إليان" في حرارة بين يديها:

– كنت واثقة بردك . في سن العشرين لا يمكن مقاومة سحر المعادن والنحاس وصوت الموتور ، لأن هذا يكون منافياً للطبيعة ! إذن ، مازلت مستعدة لمعاونتي على إقناع عمك بأن يغير من رأيه ، أن نعمل معاً على إثنائه؟

كان أسلوبها يحمل التأكيد أكثر من أن يكون سؤالاً .

تساءلت الفتاة حينئذ عما يريدون منها.

استطردت الماركيزة:

– أتعلمين أن "أرماند" على رأس معارضة قدمت لوزير الداخلية ضد هذه السيارات ، إنهم يدعون فيها اختفاء الصيد بالسنارة والكتاب (هزت كتفيها) ومع ذلك، يجب أن يتم سباق "باريس. دوفيل" . وإذا أعطى "أرماند" كلمته في "مانت" ، فهو بذلك يعرض السباق للفشل.

أكدت لها "إليان" :

– لا أجد ما قد يثنيه عن رأيه.

– وهل لك نية مرافقته؟

– لقد طلب مني ذلك.

– رائع ! ادعي مثلاً أنه أغمى عليك ! لن يجرؤ على إهمالك في مزرعة مثلاً!

تمالكت "إليان" نفسها بدافع من فضولها. كانوا قد تجاوزوا قصر "فانسين"، واقتربوا من الحصون التي يجري فيها الصبية عراة الأقدام قذرين وهم يصيحون . لم يبق إلا قليلاً من الوقت لكي يلقي الضوء على ألاعيب الماركيزة . والأفضل هو القيام باللعبة .

– لقد سبق لي أن أثبت لك صدق رغبتي الطيبة ، كما أني مقتنعة بأن كل الأحاديث لن تصل إلى الإخلال بتقدم التكنولوجيا غير أني إذا

كنت أوافق على القيام بما تطالبيني بتنفيذه ، فلا تدفعي بي إلى تيار المصالح الذي يدفعك إلى ذلك؟

– مصالح ! لقد أجدت التعبير أفي إمكاني وضع ثقتي بك؟

– عليك أن تحكمي في ذلك الامر.

– إن أي تبصر من جانبك سوف يسبب دماري . هل تفهمين ذلك ؟

صمتت "إليان" أخذت العربة تسير بهدوء. وأمام مدخل الـ "مترو بوليتان" تزاحمت السموكينج والموسلين . وكانت الأقواس تشير إلى المدخل، وعلى كل جانب عمود ينتهي بشمعدانات، فكرت الآنسة "مونفور" أن هذه الزينة لائقة تماماً مع طابع الماركيزة ، فهي نماذج من فن الأرابيسك المتشابك الذي ينتهي بحرف "m"

وقبل أن تمد مدام "دي سان ليجيه" يدها إلى الوصيف الذي يفرد تحت قدميها الدرجات المغطاة بالسجاد الأحمر ، قالت بسرعة:

– لقد اشتريت ثلث عمليات "ميشلان".

صمتت "إليان" برهة ، ثم كادت تنطلق في الضحك . تخيلت رأس عمها أمام مثل هذا الاعتراف.

تمتمت خشية– مجرد التفكير في ذلك– أن تكون الماركيزة قد اندفعت إلى عملية مدمرة مع هذه السيارات.

– ألم يكن هذا تهوراً من جانبك؟

حينئذ وضعت مدام "دي سان ليجيه" أصبعاً على فمها بمعنى "هس".

– إني واثقة بالعكس انظري السلطات مقبلة. "ميليران" وزير الأشغال يتصدر الموكب ، وفي . لمح البصر نزل من سيارته ، والمدعوون أفسحوا له الطريق. يتجه أيضا على السلالم عدد ليس بالقليل من السادة المسنين المتشائمين منتصبين في الريدنجوت، يؤرجحون عصيهم. أما عضو مجلس الشيوخ فقد أشار إليهما – عند مروره – إنه لا يستطيع الاهتمام بهما .

كما كان رجال الشرطة بالدراجات يعملون على ألا تقترب الجموع

من الموكب.

قالت الماركيزة:

– كل قطارات الفترة الصباحية محجوزة لنا. سننزل فيما بعد. لست على استعداد لحضور خطبهم. هذا بالإضافة إلى أني لن أدخل بدون "بورميس". لست أدري سبب تأخيره.

فجأة أتى شاب في رداء من القطيفة السوداء ورباط عنق من الحرير الأبيض، ووقف أمام "إليان":

– صباح الخير يا آنسة "مونفور". هانت أيضاً أتيت لحضور افتتاح الـ "متروبوليتان"؟

ابتهجت "إليان":

– "نيستور"! كدت لا أتعرف عليك

– آه لقد ارتديت الـ ١٣١!

– لكني أشعر بأنك غفلت عن عبارات أيام الآحاد؟

ومن خلفها صوت جعلها تنتفض:

– أعتقد أنه العكس، "نيستور" يجيد استخدام كلمات أيام الأعياد يومياً!

التفتت الماركيزة في حركة اجتماعية:

– عزيزي "زافييه"! هل اعتزمت الدخول إلى هذا العرين؟

– يسعدني أن أصطحبكما إليه يا سيدتي.

– مثل هذا الاهتمام من جانبك يدهشني إلى حد ما. ولا أجرؤ على اعتقاد أن عيني هما المسؤولتان عن ذلك

التفتت نحو "إليان" التي – وكانت شاخصة إلى حذائها – التزمت الصمت، ثم قالت:

– لقد فاتت فرصة التقديم، أليس كذلك؟

– في الواقع، لقد كانت لي فرصة لقاء هذا السيد وتقدير رقته – هكذا أردفت في فتور – آه! هاهو أيضا الأمير "يوكوسوف". بذلك في إمكاننا النزول.

عندما رأتهما "إليان" جنباً إلى جنب، لمحت أن لهما نفس القامة ومع ذلك، كانت تعتقد أن الأمير أطول منه. لا شك في أن المظهر يزيد من التكبر ولذلك مقتت هذا الروسي بمقارنته بالدوق الذي يتصف بالمودة الطبيعية.

سأل "يوكوسوف":

– كيف يعد هذا السباق؟

ظاهرياً، لم يستحسن "نيستور" اللهجة المستخدمة عن قضاءوقت الفراغ التي يقضي فيها كل ساعاته. التفتت نحو "زافييه":

– سبق لي مشاهدة هذا الشخص في أحد الأماكن من أنت؟

هكذا سأله رافعاً ذقنه.

ضحك الروسي:

– "بوريس يوكوسوف" في خدمتك أيها الشاب! إنك بفضلي تعمل – ربما في هذه اللحظة – من أجل الغجري "نيكولا" الثاني.

– قف! إني أعمل من أجل المتعة، ومن أجل الدوق "ديبون" رويداً رويداً، نزلت الجموع في المحطة، والمتسكعون والفضوليون السذج تفرقوا.

فجأة تحققا من أنهما آخر من يتناقشان على الرصيف، وأن بعض الصغار في ملابس رثة ينظرون إليهما في إعجاب عن بعد.

– إنك شاب شجاع.

هنا أبدى الأمير رأيه في مرح، قبل أن يقدم ذراعه إلى "إليان" وهو يرد في سرور:

هيا نفتتح!

– غير أن الفتاة ترددت لحظة، فكانت يد مدام "دي سان ليجيه" هي التي مرت من تحت الكوع المقدم:

– هيا نفتتح يا "بوريس"! دع "زافييه" يأخذ "إليان". إنه مهتم إلى حد كبير بـ "باريس – دوفيل". بذلك سيحصل منها على كل ما نرغب فيه!

ثم بعد هذه الغلطة العفوية ، غمزت بعينيها إلى الشابين، وقادت الأمير إلى مدخل الـ "متروبوليتان".

تمتمت نظرات "إليان" . تجاهلت ذراع "زافييه" . أدرات ظهرها ومضت منتصبة وهي تعض على شفتها .

وكان للذوق الشاب نفس رد الفعل الذي لها إزاء كلمات الماركيزة . سار إلى جانبها محاذياً خطاها ، وهو ممسك بمقبض عصاه الفضي . في حين أن "نيستور" تقدم الجميع ، يقفز الدرجات بسرعة .

ثم شعروا جميعهم بطقس رطب جميل . وكان على الرصيف بعض المدعوين مازالوا يقفون .

وبعض السيدات متوكئات على مظلاتهن ، كن يصغين إلى مزاح السادة المسنين .

ثم اتجهت كل الأنظار - بالحاسة - نحو النفق ، مترقبين وصول القطار، منصتين إلى أصوات العجلات على القضبان .

أردفت مدام "دي سان - ليجيه" بنبرة ساخرة:

أتعتقد أن الناس سوف يعتادون السفر مثل حيوانات الخلد .

رداً عليها صاح "نيستور" :

- آه! لا! امتلأت المحطة بالضجيج والأرض اهتزت مصدرة أزيزاً . تراجع الجميع بينما القطار كان يهدئ من السرعة . العاملون- وهم في زي أخضر والكابات تعلو رؤوسهم- انتظروا التوقف التام لكي يفتحوا الأبواب . احتقر المدعوون العربة الأولى وأسرعوا إلى التي في الوسط معاً وسط ضحكات عالية . وكانت هذه العربة وهي باللون الأحمر مخصصة للدرجة الأولى . وقبل أن يدفع تيار الناس بـ "إليان" ، كان "زافييه" قد أمسك بمعصمها .

- آه لا داعي للتزاحم ، طالما توجد بالقطار عربات خالية. عجزت عن المقاومة ! جذبها بقوة نحو العربة الثالثة . وقد دهش العامل المسؤول لأن مثل أولئك الناس يمنحوه شرف اختيار عربة الدرجة الثانية. تراجع لكي يدعهما يدخلان ، وأخذ يلاحقهما بنظراته . ولما استمرا واقفين ، عرض

عليهما في تردد:

- ألا تفضلون الجلوس؟

قطبت "إليان" أنفها علامة رفض و"زافييه" قبل العرض مبدياً ابتسامة. حينئذ أغلق الموظف الأبواب ، وتحرك القطار.

ثم ارتفعت الضحكات والصيحات في السيارة المجاورة . عندما فقدت "إليان" توزانها من اهتزاز القطار ، التصقت على غير إرادتها بالدوق.

قال ضاحكاً:

- تعالي .. اجلسي.

- لالا! لأني لا أدري من استخدم هذه المقاعد

- لا أحد ! إنه الافتتاح!

- إنهم يقولون ذلك

ابتعدت وفضلت أن تستند إلى الجدار.

- الماركيزة هي التي حاولت أن تقنعك بأني كنت أرغب في استخدامك لكي تثني عمك ، أليس كذلك؟

هكذا سألها .

- لقد فتحت لي الماركيزة بصيرتي على تصرفاتك ، ليس أكثر من ذلك .

- أمسك بيدها وبدا مستغرقاً في تأمل قفازها الدانتيل:

- كنت متوقعاً ذلك. من أجل ذلك دبرت مقابلة مع عمك يوم لقائنا: كنت أتمنى أن تفهمي إلى أي مدى أنا متمسك بوضع حد للمشاكل التي تلحق بي.

رفعت حاجبها ، وقد اقشعرت من الغضب : ومع كل فهو لا يأمل في أن يقنعها بسهولة!

- إنك لا تقدرني يا سيدي. أنا لا أغفل عن الاعيبك ! هل في إمكانك أن تقسم لي بأن لقاءنا كان بمحض المصادفة .

- صديقتي المسكينة ! أمن الممكن إدراك أن هناك من هو كفيل ليس

فقط بالاختراع ، لكن أيضاً تحقيق سلسلة مواقف كهذه ! للقيام بذلك لابد من وسائل لا اتمتع أنا ذاتي بها!

– لقد عثرت على من يقومون بإزعاجي!

وإذا بضوء فجائي يدفعهما إلى الالتفات.

أعلن المسؤول:

– دولة!

تقدمت خطوة نحو البوابة . ولما أراد دحض أي محاولة هرب . مد الدوق "ديبون" ساقه أمامها ، وبذراع قوية جذبها إلى صدره ، فاقشعرت لهذه اللمسة . رفعت نحوه نظرة متحفزة.

تمتم :

– يا إلهي ، كم أنت جميلة!

ثم تركها . بعد قليل رأت هذه الابتسامة المعتادة التي ترفع الجانب الأيمن لشاربه . ولم يتوقف القطار سوى ثوان.

قال "زافييه" بلهجة مرحة:

– هكذا أطاردك؟

سيطرت "إليان" على ما لحق بها من تأثر ، واستعادت كيانها :

– أليست لك نية استرداد ورقة ؟ "ورقة صغيرة" أنت الذي اعترفت لي بنفسك بذلك !

– حك حينئذ ذقنه بأصبعين ، وبدا مفكرا :

– أنا أخبرتك بذلك ؟ أنا ؟ لكن أي ورقة أبغي إعادتها

هنا انفجرت الفتاة . مادام أن الدوق "ديبون" مصر على الإنكار ومادام أنه لا يعرف الصراحة ، لن تفيده حذلقة الصالونات . وإن كان غير منتبه فسوف تذكره :

– كفى ! إني أمقت خداعك . إنك ببساطة فقدت رسم الموتور الذي تعمل فيه الآن . إنك الآن تستخدم الوسائل التي قد تمكنك من إعادته، وهانت الآن تحاول التقرب مني ، وكان شيئاً لم يحدث متظاهراً بتجاهل الأمر !لم يضحك "زافييه" لأن الحيرة بدت على

قسمات وجهه.

قال مؤكداً في وداعة:

– أقول صدقاً إني لا أفهم هذه الكلمة التي تتغنين بها

وأخذ يعمق النظر فيها كمن يسعى إلى قراءة تفسير على وجهها. ولما بدت في حالة تفكير ، استطرد :

– اسمعيني جيداً يا ابنتي الصغيرة . إن الرسم الذي تتحدثين عنه في ذهني وبين يدي وبين يدي "نيستور" ولم يرسم على ورق ، خاصة على ورقة من الممكن أن أتركها.

– لكنك أخبرتني أنك فقدت هذه الورقة ، وهي تلزمك للاشتراك في مسابقة "باريس– دوفيل" !

أطلق "أوف" علامة الاطمئنان ، وممتنعاً عن الضحك ، عنقها مشيراً بإبهامه إلى الخصلات الكستنائية التي تخرج من القبعة:

– يا لها من قصة تولدت في هذا الرأس الصغير. نعم أتذكر أني كلمتك عن ورقة . كنت أقصد مذكرة كان سيضعها على مكتب وزير الداخلية!

وكانت نبرة الشاب تضايقها ، لكنها لم تلمح بذلك . رغبت . وعيناها مليئتان بالدموع – في أن تنتهي من هذه اللعبة . لعبة الاستغماية.

– لكن هذا الرسم معي!

أرادت العمل على التركيز على كل مقطع من الكلام ، لكن صوتها اختنق في حلقها.

هنا تملكت الحيرة – حقاً– الدوق . قال:

– لن نتمكن من التفاهم مادمنا نتحدث عن أمور متناقضة . ثقي بي ثانية واحدة ، أؤكدلك .أخبريني بالتفصيل عما توجهين لي من لوم أو عتاب.

وكان القطار قد تجاوز محطة "جاردي ليون" .

– ثم الـ "باستيل" دون أن يتخلى عن الرغبة في التملص عندما

تطلعت إلى اللوحة المعدنية الموجودة أعلى الباب ، لاحظت – نادمة– أنه لا يتبقي سوى محطتين "فندق المدينة" و"القصر الملكي" قبل محطة "الشانزليزيه" حيث كان عليهما أن ينزلا لكي يلحقا بالماركيزة والأمير.

يبدو أن "زافييه" كان صادقاً في كلامه . إذا كان لا يكذب وإذا كان لم يرسل هذه الفتاة الشقراء لكي تعتدي عليها في العربة ، فمن الذي قام بمثل هذه الحركة؟

أغلقت عينيها وتنفست بعمق، ثم رددت الأحداث كمن تحدث نفسها ، دون أن تسعى إلى استعادة أنفاسها المتوترة .

لكن عندما وصلت إلى موضوع العربة ، هدأت قليلاً من مغامرتها لانها تاثرت لاتهامها لـ "زافييه" . وكلما أتت الكلمة إلى شفتيها ، كانت أفكارها ترمح في اتجاه مواز : لو كان الدوق هو مؤلف مأساتها ، فيجب ألا توجه إليه أي كلام بعد الآن . ومع ذلك – على الرغم من اعتقادها بانه مسؤول عن هذه الجريمة– قبلت أن تتبعه إلى عربة القطار . أليس في هذا التصرف اعتراف له بحبها له؟

انتفضت عند سماع صفارة الإنذار . وسط النفق ، هدأ القطار مسيرته . بعض المصابيح أعلنت الورشة: كتل خشبية ، رمال ، طوب، عمال يشيدون محطة "شاتيليه" . ثم عاودت العجلات دورتها قبل التوقف في "باليه رويال" أي القصر الملكي.. كان لا يبدو على "زافييه" أنه يسخر منها. كان قد استمع إليها بكل اهتمام . أخذ يعض على شفته السفلية وقد ظهرت التجاعيد على جبينه .

– أمر مثير للقلق أكثر مما كنت أعتقد.. هذه السرقات العجيبة الاختفاء الوقتي لهذه القطعة.

– هل سرقت من جديد؟

– لا .. إنها الآن في مكان آمن يجب أن تريني هذا الرسم

– لا تعتقدي أني رغبت الإساءة إليك ، لا تعتقدي ذلك.

وكان أثناء ذلك ، يضع يديه على كتفيها . هزها متوسلا ، راغباً في

انتزاع اعتراف منها.

اهتز القطار مرة أخرى ثم توقف بشدة فجأة ، فألقى بهما الواحد على صدر الآخر ضعفت الإضاءة ، ثم ساد المكان ظلام تام.

شعرت "إليان" بذراعيه يحتويانها لحمايتها . وعلى وجنتيها المبتلتين بالدموع كان هناك فم يسعى إلى فمها في وداعة . ثم غرقت في القبلات ، على الجفون ، على الجبين ، على الأنف ، على القلب الذي يخفق . فكرت من جديد في يأس أن "زافييه ديبون" سيتزوج قريباً فتاة من مستواه.

مدت له شفتيها وضمته إليها بقوة .

وفي العربة المجاورة ، اختلط الفزع بالإثارة ، فكانت هناك صيحات وضحكات تخرج منها صرخة:

" الساحرة الكهرباء ! الساحرة الكهرباء!"

الفصل السادس

كانت "إليان" قد اختارت بطاقة بالألوان . كانت سمعتهم يتحدثون عن هذا النمط ، الصبغية التي بدءاً من الأحمر والأصفر والأزرق تسمح بالحصول على كل الألوان . وكانت هذه هي المرة الاولى التي تجد فيها في البوتيكات صورة فوتوغرافية تستخدم هذا النمط . كانت الألوان باهتة ، مترددة ، لكنها رأت فيها إبداعاً ينسجم مع حيوية واندفاع قلبها.

دخلت مكتب البريد . أخرجت من حقيبة يدها قلم "كوبيا" . ندته بطرف لسانها ، وكتبت بخط غير منسق:

" أنا سعيدة ، سعيدة ، سعيدة لكنني لن أنسى القول المأثور : من يضحك يوم الجمعة يبكي يوم الأحد ، وهانا معتمدة عليك لكي تمسح دموعي عندما يحتاج الأمر لذلك " . ثم كتبت عنوان والدها في "لندن" اشترت طابع بريد وسلمت رسالتها إلى الموظفة.

ثم بدأت طريق العودة ، وكم سعدت لمنظر الشارع تكتشفه . نظرت إلى الراعي الذي كان يأتي مرتين في الأسبوع لكي يحلب شاته وبقرته حسب الطلب بجوار الرصيف . ومن الشارع المجاور كانت تنبعث أنغام الـ "تراقيانا" عن أورج دي "باربارى" . وكان أيضاً من بواعث سرورها أنها شاهدت حوذي السيارة ذات العجلتين وهو يكيل السباب لرجل مهذب يركب سيارة وعاجز عن تشغيل سيارته.

تساءلت إذا كانت "إنجلترا" قد طردت هموم والدها بعد إفلاس مشروع الغزل في "ميربل" لم يدع الفرصة لأي شخص كان أن يلاحظ التجاعيد التي بدت فجأة على وجنتيه . وكان محتفظاً بمرحه المعتاد لكي يعلن أنه سينصرف لكي يغتسل في الـ "تافير" من همومه الصغيرة".

– كثيرا مالا مني عمك "أرماند" – أخي المسكين – على حبسك في المقاطعة . وهي الآن فرصة لا تعوض للإفادة باهتمامه بك.

– ستفيدك "باريس" ، وإذا كنت تحبينني ، فأنا لا أطلب منك سوى شيء واحد: امرحي ، انتهزي كل فرصة مقدمة للخروج لكي تتنزهي . إننا نعيش أجمل فترة . أليس كذلك ، حسناً .. إني أرغب في أن تعيشي! هل تحبينني يا "إليان"؟،

– آه .. يا والدي

وكانت الفتاة قد استسلمت للدموع ، وهي تلقي بنفسها بين ذراعي هذا الرجل المطحون من الحب والمخالفات .

– إذن ، امرحي بأي شكل كنت سأرسلك لزيارة "المعرض العالمي"!

"المعرض": لم يسبق لها الذهاب إليه سوى مرة واحدة . كانت قد تناولت الغداء مع عمها في مطعم روسي حيث . من شدة تعلقها بالديكور الموجود فيه – لمست فقط الطبق المقدم لها الـ "زاكوسكي". كانت القناعة تمثل عربة "تراسريان". ومن خلال النوافذ، كانت كل المناظر الريفية الروسية مرسومة على أسطوانات تمر أمام عيون المدعوين.

كانت عبارة عن منظر عبور أنهار ضخمة ، غابات ، صحاري ومقابر وبعض السهول التي لا نهاية لها . وعندما حان وقت تقديم الحلو انصرف الخادم الروسي وحل محله صبي صيني . أعلن هذا الأخير : "بكين .. الجميع ينزل!"

صعدوا بعد ذلك إلى مرتفعات "تروكاديرو" وتوقفوا عند جناح "سيلان" الزاخر بأنواع الزهور ذات اللون الموف ، لكي يتناولوا الشاي المقدم على صواني فضية بواسطة خدم هنود في زي أبيض.

ثم عادوا متنزهين وسط موجة من العطور والبخور مع أنغام الكمان الصيني والمزمار العربي.

شعرت بأنها – وهي تحلم– كانت قد بطأت خطاها وتذكرت أن "مانون ريفي" كان ينبغي أن تقيس لها الفستان الذي ينبغي أن ترتديه في المساء في الأوبرا. فتحت مظلتها حتى تخفي عن المارة ابتسامتها البادية على شفتيها . كانت "إليان" قد عاشت في انتظار هذه السهرة ، منذ افتتاح الـ "متروبوليتان" وكان الدوق – عندما علم أنها ستحضر أوبرا "عايدة" في لوج الماركيزة– قد أعطاها موعداً في الصالونات، أثناءفترة ما بين الفصول ، لكي يسلمها الرسم العجيب، اللغزي .

خفق قلب الفتاة عندما تذكرت هذا اللقاء . كما أن "مانون" قد أعدت لها – لهذه المناسبة – فستاناً جديراً بإحدى الأميرات.

اجتازت المدخل بخطى خفيفة . مرت عن طريق المطابخ قبلت "سيلستين" وهي مستمرة في الدندنة، انتزعت قفازها لكي تغمس أصبعها في الصلصلة التي تغلي في ركن الموقد وإذا بالسيدة العجوز تعنفها:

– أراك فاقدة الصواب هذا الصباح ! كفي عن هذه الحركة الزائدة وإلا ستضطر مدام "مانون" إليغرس الدبابيس في جلدك!

– هل وصلت ؟

– إنها في انتظارك في الصالون.

دارت "إليانا" حول نفسها . اخترقت المدخل . توقفت على العتبة لكي تسترد أنفاسها . كان الفستان موضوعاً على مقعد ذي مساند ، وكانت المرآة تعكس لها جمال الساتان والتطريز الرقيق وقوام "مانون" وهي تتأمل فخر إنتاجها .

– هأنذا أقرأ ما بأفكارك يا "مانون" !

فزعت الخياطة:

– وما الذي تقرئينه؟

– إني سأكون أجمل فتاة في المساء.

– ليس هذا فقط الذي أفكر فيه ، إنما سيكون لك في هذا المساء معجبون عديدون !

– لست في حاجة إلى مئات المعجبين!

– هل يكفيك الامير "يوكوسوف"؟

– تظاهرت "إليان" بأنها ستضحك وإن كانت ملاحظة صديقتها جرحتها حقاً.

قالت وهي تحاول محاكاة لهجتها:

– إن السيد "بوريس يوكوسوف" رجل قبيح جداً وادعائي جداً.

ركزت "مانون":

– لا شك في أنه ادعائي ، لكن ما شأن سحره في ذلك ؟

– هذا رأيي فيه لكني أرغب في التحدث عن شيء آخر ، لأني في غاية الشوق لارتدائه. هكذا ختمت كلامها مشيرة إلى الفستان. وصعدت كلتاهما إلى حجرتها ، وساعدت الخياطة "إليان" على رفع ملابسها. عملت بسرعة على فك الأزرار والكباسين والمشابك والسوست . ألبستها "مانون"

أولاً "الكورسيه".

ثم أطلقت صيحة إعجاب:

– يا له من قوام رشيق! أراهن أنك أنحف زبونة عندي.

– عدا الصغيرة "فون جلوكر"؛ ربما لأنها مازالت صغيرة السن.

وعلى الرغم من اهتمام "إليان" واشتياقها إلى ارتداء فستانها استفسرت :

– من هي ؟

– إنك لا تعرفينها إنهم أبناء عم الأرشيدوق "دي بافيير". ابنتهم الكبرى لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها. ومشاهدة الأوبرا في هذا المساء ، تعد أول خروج لها.

كانت هذه الأحاديث تضايق إلى حد ما ابنة أخي العضو، لأنها كانت ترغب في الاستمتاع بمسرتها في صمت، لكن "مانون" كانت لا تمل الثرثرة ، فما كان من "إليان" إلا أن أبدت دهشتها ومن باب اللياقة سألتها:

– صغيرة إلى هذا الحد؟

– نعم منذ الإمبراطورة "سيسي" ، أصبح البروتوكول لدى النمساويين مبسطاً . هذا بالإضافة إلى أن هذه الصغيرة تبدو أكبر من سنها إنهم يريدون أن يزوجوها للدوق "ديبون".

عجزت عن استعادة حماسها .

– إذا كان عقلها قد خضع لاعتقاد أنه ينبغي أن يتزوج "زافييه" من فتاة من مستواه الاجتماعي، إلا أن قلبها كان يرفض هذه الفكرة ، إذ إن "إليان" – بسذاجة – ظنت أنه مازال حراً ، ومن الممكن أن يحبها. لقد أصابها إعلان "مانون" لهذه الحقيقة بطعنة أشبه بهذا السهم الذي يصيب أحد الحيوانات أثناء غفلته.

تقدمت للقياس في ابتهاج، محاولة أن تخفي ما أصابها من ألم ، غير أنه كان يبدو لها أنها منفصلة تماماً عن جسدها .

ثم توجهت إلى حجرتها حيث قضت فترة ما بعد الظهر ممددة على سريرها ، تستمع دقات الساعة كل ربع ساعة، وهي تغلق عينيها لكي تستعيد ذكرى قبلة "زافييه" .

لم يبد "زافييه" أي وعد وهي لم تطلب شيئا ، لأن كل علاقتهما لا تتعدى اتحادا تاما لروحيهما.

أبعدت عنها الكآبة . كانت في هذا الصباح مرحة إلى أقصى حد. وما الذي حدث حتى إنها اكتأبت إلى هذا الحد؟ لا شيء لا شيء حتماً، إن لم يكن عدم تكتم صديقتها "مانون". "لو كان "زافييه" قد عمل على إخطارك أنه لن يتواجد هذا المساء في الأوبرا ، لو كان عمل على إحاطتك علماً بأنه يرغب في ألا يراك أبداً بعد الآن لكن شيئاً ما من كل ذلك لم يحدث : "زافييه ديبون" مازال – في هذه اللحظة – كما كان عليه في صباح هذا اليوم وأنت يا "إليان مونفور" ليس من مبرر حتى إنك تارة تتواجدين في حالة ابتهاج ، تكادين تطيرين فرحاً ، وتارة أخرى أراك غير مبالية بشيء غير أن ما قامت به من وعود لم تفلح في إبعاد الكآبة المحزنة التي تمزق قلبها ، لكنها جعلتها تتحرك ، لذلك قررت قضاء وقت ثمين في الاستعداد لهذا العرض الأوبرالي .

– والآن عليها بإعادة رسم الموتور الذي كان في ثنية فستانها ، وأن تضع مكانه القلم الكوبيا، وأن تعيد الخياطة ، على أن تحرص على ألا تتعرض لوخز الإبرة لإبهامها دست الرسم مع النظارة المكبرة الصدفية في الحقيبة الساتان المناسبة لفستانها الجميل ووضعتها في الكومودينو الكورسيه والجورب الحريري الأسود . ثم نزلت إلى الحمام الملحق بالمطابخ واغتسلت طويلاً بالماء الدافئ الذي أعدته لها "سيلستين" . ثم صعدت بعد أن التفت في الروب الكريب ، في انتظار وصيفة مدام "دي سان ليجيه" حتى تصفف لها شعرها.

ترقبت – في الشارع – مرور الشخص المكلف بإضاءة الكشافات ، الذي يعلن أن الظلام قد ساد أخيراً. وفي التاسعة والنصف، نزلت إلى الصالون لكي تلحق بعمها. وإذ أعجب كثيرا ، أمسك بها من إصبعين وجعلها تدور حول يده الممدودة في وضع مربع .

– إذا كنت قد تقابلت – منذ ثلاثين سنة– مع فتاة بمثل جمالك لما أصبحت الآن عازباً عجوزاً!

أفحمته ضاحكة:

– وهل أنت نادم الآن على ذلك ؟

مسحت "سيلستين" دمعة سقطت على وجنتها ، عندما رأتهما ينصرفان . وكان الضوء المتوهج حول الأوبرا صادراً عن مصابيح مضاءة بالكيروسين . عندما وصلا عاون "أرماند" ابنة أخيه على النزول من العربة وصرف الحوذي .

كان من المألوف ألا يصل في بداية العرض. لم يحدث أبداً حضور الأثرياء – الذين اعتادوا استئجار اللوج – مع أول فصل لـ "فوست" أو "دون جوان" . تأكد عضو مجلس الشيوخ من أن سيارة مدام "سان ليجيه" قد مرت : كان لا يمكنه الدخول إلى اللوج قبل استقرار الماركيزة فيه.وفي القاعة – وكان الأوركسترا يدوي فيها– كان بعض السادة ذوي الشوارب المهذبة والنظارة في اليد يتناقشون ملوحين بمعصيهم . وكان أحد السعاة يوصلهم عن طريق السلم الكبير .

– كان "بوريس يوكوسوف" في انتظارهما أمام اللوج . كان قد عاد إلى ارتداء زي ضباط الفجر ، كما أنه ضاعف من حركاته المتعالية .

قام بتحية "إليان" دون أن يوجه إليها أقل كلمات المجاملة ، لكن نظراته كانت تتركز على عنقها وكتفيها على نحو جعلها تشعر بالحرج . ثم رفع الأمير الستار الأحمر السميك وتراجع لكي تمر.

– همست الماركيزة وهي تشير لـ "إليان" إلى أقرب مقعد ذي مساند أمام الدرابزين. "أرماند" ألا يخشى من أن تختطف ؟

هنا تدخل "يوكوسوف":

– مادمت موجوداً فلن يحدث أي شيء.

رفع عضو مجلس الشيوخ يد مدام "دي سان ليجيه" ، قال لها:

– بل ارتجفي لنفسك ، لأنه ليس من يصل به الغباء إلى حد أن يخطف الواحدة دون الأخرى.

غير أن "إليان" – بعد أن استقرت – لم تلتفت إلى كل ما يتردد من حولها من تعليق بصوت خافت . أخرجت نظارتها تظاهرت

بأنها مستغرقة في تأمل الآنسة "شارل" و" زوبيه" لكنها انتقلت بنظارتها بسرعة إلى السادة العزاب الجالسين أمام الاوركسترا ، متجاهلة البالكونات المخصصة للأجانب ، في محاولة لاكتشاف اللوج الذي يجلس فيه الدوق "ديبون" ، مع إحساس بالضيق لفكرة أن "زافييه" لابد أن يكون قد رآها ، ويتسلى بمشاهدتها وهي تبحث عنه.

استفسرت الماركيزة وهي تحرك مروحتها:

– هل تركتم فكرة الاجتماع ؟

– يالها من كلمة ! هكذا فزع "أرماند مونفور" . وكأنك تتكلمين عن اجتماع فوضويين!

– إني أتحدث عن المؤتمر الخاص بك في "مانت" . إن موقفك إزاء هذا السباق يشغل بالي كثيراً

– لا أستطيع التخلي عنه.

تدخل "بوريس يوكوسوف" ومال بينهما:

– لقد طمأنني السيد "والديك روسو" بالنسبة لمسابقتك وبالنسبة لمشروعنا عن السوق "الفرنسي – الروسي".

تخلت "إليان" عن مراقبتها ، والتفتت إلى عمها . وقد علت الحمرة وجهها من الخجل ، لكن على الرغم من ذلك تشعر بالاعتزاز لأن رئيس الوزراء نطق باسمه خلال الجلسة .

تظاهرت مدام "دي سان ليجيه" – مع ابتسامة على شفتيها – بأنها تهتم بأمر آخر . رفعت نظارتها ووضعتها عن اليسار :

– هل رأيت البارون "دي روشيلد"؟ لقد وصل في سيارة أوتوماتيك اثنان وثلاثون حصاناً . ماركة ألمانية

تابعت "إليان" الاتجاه المبين ، سعيدة جداً لأنها وجدت الفرصة للعودة إلى بحثها عن الوجه الذي طالما اشتاقت إليه . لم تجد فرصة للوصول إلى البارون "دي روشيلد" . شعرت بأن الدماء تركت وجنتيها ، وبدأ قلبها يخفق وها هي عدسات نظارتها تحصر ملامح الدوق "ديبون" . مال

"زافييه" على خصلات الشعر الكستنائية التي للفتاة ذات البشرة الشاحبة ، والوجه الملائكي ، تحفة ثمينة ورقيقة ، ذات الرداء التافتاه الأخضر النيلي.

فهمت في الحال أن الآنسة "فون جليكر" بصحبة خطيبها نظراً لأنها المرة الأولى التي تخرج فيها. وكان في نفس اللوج رجلان وسيدتان أكبر سناً، لاشك في أنهما والدا كل من الشابين. يحكون الرأس على أنغام الكمان.

تمزقت "إليان". وكأن "زافييه" قد قال لها بوضوح " هأنت ترين جيداً. إني مرتبط بأخرى . إن قبلنا لم تكن سوى".

ثم في أتين واصلت:

– حدث طارئ.

تحققت من أنها تفكر بصوت عال . وإذا بالماركيزة تضع يدها على يد "إليان":

– ماذا بك؟ إنك شاحبة وأصابعك ثلجية.

– لست أدري الحرارة على أي حال سوف يمر.

كانت الفتاة تتخيل هذا اللقاء – في الفترة ما بين الفصول – التي طالما تمنتها . هل كان "زافييه" سيقدم لها الآنسة "فون جليكر"؟

وعندما تسلمه الرسم الذي كانت محتفظة به بحرص في حقيبتها . هل الدوق "ديبون" سيحكي إلى خطيبته ما كان قد لحق بها من مواقف سيئة كانت ضحيتها؟ أغلقت أذنيها لأنه قد بدا لها سماع نبراته العذبة واللاذعة . الآنسة "مونفور" تحيا حياة شائقة"

قال لها عمها:

– أراك غير منسجمة . هل ترغبين في الخروج ؟

– نعم ، شكراً أتمنى استنشاق

عرض عليها "يوكوسوف" – وهو يساعدها على الوقوف – أن يرافقها.

ولما كان "أرماند" قد نهض ، استبقته الماركيزة :

– امكثا هنا كلاكما . أعتقد أن لديكما أموراً للمناقشة ، على ما

أعتقد قد يفيدها تواجدها مع فتاة مثلها.

استلمت الفتاة لاصطحابها إياها خارج اللوج.

انتعشت عندما خرجت إلى الدهليز من تأثير تيار الهواء الرطب على بشرتها كما أن الأوركسترا كان قد انتهى.

أكدت مبتسمة:

– أشعر الآن بتحسن.

– على الرغم من ذلك يجب أن تعودي لكي تستريحي.

– نعم. إنه الشيء الوحيد الذي أنا في أمس الحاجة إليه.

وفي اللحظة التي وصلا فيها إلى أعلى السلم، تجاوز هما رجل أتى من الطابق الأعلى. وكان وجهه يبدو – في ضوء مصابيح الغاز – وكان به طعنات خصلات شعر أشقر تكاد أن تكون بيضاء تنزل حتى إلى عينيه الغائرتين. لم تتعرف عليه "إليان" في الحال. ثم استبدلت ذهنياً القبعة بكاسكيت.

وعندما وصلا إلى الصالة، رأته يتناقش مع المنادي في ملابس على الطريقة الفرنسية ووضع في يده ورقة مالية.

لاشك في أنه الرجل الذي كان يراقب نافذتها طوال أسبوع.

دخل إلى عربة ذات عجلتين وانصرف على الفور.

كانت مدام "دي سان ليجيه" و"إليان" واقفتين خارجاً منذ عدة ثوان والمنادي لم يلتفت إليهما بعد.

همست الماركيزة في ضيق:

– فيم يفكر هذا الشخص عديم الأدب؟

تركت ذراع رفيقتها، ووضعت حول كتفيها شالاً كفيلاً بجذب الانتباه. وكان الشاب لا يزال يتجاهلها.

– لا فائدة من النرفزة، أعتقد أنه يحلم!

اقتربت منه، وقالت في جفاف من بين أسنانها:

– إن البطالة تترقبك أيها الشاب. اطلب سيارتي.

ارتبك باعتذارات طويلة.

– يا للوقاحة! احضر عربتي حالاً!

– سوف أنفذ طلبك يا سيدتي، أنا آسف. لم أتوقع أنك ترغبين في الانصراف مبكراً

– كفى، وبعد! نفذ ما أطلبه منك.

تمتم:

– سيارة مدام "دي سان ليجيه"!

وكان صوته غير مسموع فلم يسمعه الحوذي. اضطر إلى التكرار بعد أن سلك حلقه، وهو "يعوي" في هذه المرة وكان هذا من واجبه.

ولما كانت الماركيزة قد أخطرت عضو مجلس الشيوخ – أي النائب – بأنها سوف ترافق ابنة أخيه، طلبت أن تعد عربتها "فيكتوريا" بالخيول.

ثم – بمعاونة الوصيف – جلست السيدتان بارتياح على الأريكة الفسيحة. وكانت النجوم تملأ السماء، ألقت "إليان" برأسها إلى الخلف واستسلمت لهدهدة العربة التي تهتز على خطوات الخيول المنتظمة، وأيضاً لصوت حوافرها على الأرضية.

وعن بعد، عند ناصية شارع "تيرن"، لمحت عربة ذات خيول تهرب بأقصى سرعة.

كان هناك مصباح مضاء بالكيروسين يضيء المدخل، وكانت "سيلستين" تقف في فستانها الأبيض الطويل مثل الشبح وسط الدهليز، وبيدها المرتجفة شمعدان.

– آه، الآنسة! إنه أنت؟ لقد رعبتني. ما الذي حدث؟

– ماذا تفعلين وأنت واقفة هكذا في الظلام؟

– سمعت صوت رمح الخيول

أكدت لها الماركيزة:

– رمح الخيول، لقد وصلنا بهدوء.

فركت "سيلستين" عينيها كمن ترغب في طرد النعاس:

– عربتك ألم تعد؟

– إنها في انتظاري أمام الباب.

– أنا لم أحلم! لقد سمعت عربة تنطلق بأقصى سرعة لخيولها.

فكرت "إليان" وهي تعض على شفتها . لابد أن المنادي أراد كسب وقت قبل أن ينادي الحوذي مدام "دي سان ليجيه" ترى هل الرجل الأشقر أعطاه بعض التعليمات أثناء ما كان يضع له ورقة مالية في يده.؟ هل كان ينبغي أن يسبقهما إلى هنا ؟ هل هو الذي كان في هذه العربة؟ على أي حال ، كان عليها أن تخفي قلقها:

– لقد نحت عربة تصعد الطريق أمامنا ، ليس ما يدعو للقلق.

– عودي إلى فراشك في هدوء يا "سيلستين" لأن مدام "دي سان ليجيه" ستساعدني على خلع ملابسي.

أطاعت الخادمة المسنة قسراً.

أطفأت "إليان" المصباح ، وأضاءت شمعة . ثم تقدمت الماركيزة في السلم وفي اللحظة التي فتحت فيها باب حجرتها أطفئت الشمعة.

يوجد تيار هواء. لابد وأني لم أغلق نافذتي جيداً. تحسست إلى أن أمسكت بالمصباح الذي يضاء بالزيت حيث أضاءته بالكبريت.

حينئذ لاحظت الماركيزة أن زجاج النافذة مكسور كان الضوء خافتاً في الحجرة . عملت الفتاتان على تفحص أركان الحجرة.

– هل تركت أدراجك مفتوحة إلى النصف؟

– لا

تمتمت "إليان" وقد جف حلقها.

وكانت حجرتها قد فقدت ترتيبها . وكانت أدراج الكومودنيو والتسريحة مفتوحة . كما أن أوعية كريم "سيمون" كانت قد نقلت من مكانها.

الفصل السابع

نزلت "إليان" السلم بخطى بطيئة حتى لا تصدر صوتاً.

كان عمها منذ ساعة مبكرة في مكتبه. كانت تعلم أنه في حالة عصبية وقلقة وإن كان أقل منها . اعتبر العم دخول المعتدين عنده تهديداً خاصاً به. ولم تفلح في إثنائه عن فكرته. احتفظت الفتاة بالسر لنفسها . بالنسبة لـ "زافييه" – هكذا كانت قد قررت – لن يعلم شيئاً عما يحتويه هذا الرسم . وكانت مقتنعة أن الدوق صادق : لم يشترك في هذه العملية إلا إذا كان ضحية لنفس هذه العصابة . عصابة أولئك الأشرار الأشقياء.

لاشك أنها عملية مشتركة قانونية ، لذلك عملوا على معرفة كيف تقضي يومها . أرسلوا من يبحث في حجرتها وآخر يتأكد من أنها لم تغادر الأوبرا. لذلك فإن ما اعتراها من انحراف في المزاج ورغبتها في العودة عملا على عرقلة خطتهم

حرصت على ألا تصدر صوتاً على الدرجة الأخيرة من السلم.

كتمت نفسها ، اقتربت من باب مكتب النائب . ووضعت أذنها عليه . كانت قد سمعت قبل ذلك بدقائق "سيلستين" وهي تدخل إليه زائراً.

كانت الكلمات تأتيها مخنوقة من خلال الضلفتين المغلقتين.

– لقد سعدت سيدي الوزير لاهتمامك بالأمر شخصيا ، لكن ..

لا تقل "لكن" . إنها كلمة أريد إزالتها من قاموس زملائي.

– أنا آسف ، ولا أستطيع الموافقة . هانا أقاوم – على مدى خمس سنوات – جرحا لن يأتي للوطن إلا بالأسف والندم ، وهانت تطالبني فجاة بأن أنادي بشرف "فرنسا" قبل إنجلترا يتمثل على الـ "باريس– دوفيل" ! لا أستطيع أن أخضع لذلك.

– بصراحة ، إننا لا نفهم تمسكك برأيك . لقد افتتح الرئيس "لوبيه" المعرض الخاص بالسيارة الأوتوماتيك.

– إني أحترم الرئيس "لوبيه" كثيراً . ومع ذلك ، أطلب منك العفو في ألا أكون دائما متفقاً مع تصرفات الحكومة .

استطرد الصوت بنبرة معسولة :

– بالضبط لقد حضرت لكي أعرض عليك وظيفة تسمح لك بالقيام بتطويرها وإدخال التحسين عليها. إننا نعرف قدرك، نحيي فيك وطنيتك الحارة.

– إني مقتنع بأن هذا الاختراع قد لا يأتي إلا بالجريمة. لقد وقعت – في الأيام الأخيرة – ضحية اعتداء على مسكني

– حسناً يا آنسة "إليان" لقد أمسكت بك.

انتفضت الفتاة عند سماعها لهجة "سيلستين" القاسية.

علت الحمرة وجهها وضحكت. وارتجفت في آن واحد:

– لقد جننت بجعلي أفزع على هذا النحو! كدت أموت في مكاني!

– لم تجب المديرة المسنة على ضحكها، بل أدارت لها ظهرها وهي تتمتم:

– اتبعيني إلى المطبخ، لأني لا أرغب في أن يسمع أحد ما أريد أن أخبرك به.

في هلعها، لحقت بها الفتاة في ثلاث قفزات.

حوطتها بذراعها في مودة. قالت:

– هل قمت بشيء خطير يا "سيلستين" لا تغضبي، أطلب منك العفو مسبقاً!

– لست في حاجة إلى غفرانك! غاية ما أريد هو ألا تتكرر هذه الحركة مرة أخرى!

ودون أن تنفرج أسارير "سيلستين" سبقتها إلى المطبخ ووقفت في الوسط وأشارت بأصبعها إلى ظرف على أحد أركان المائدة. ثم وضعت يديها في خصرها وتفرست فيها، دون أن تعمل على إخفاء غضبها:

– ليس لي أن أحكم على أحد. أن تقضي أيامك في الجري في الشوارع هذا لا يخصني، مادام السيد "أرماند" يعلم ذلك.

لكن لا تجعليني شريكتك!

توسلت إليها "إليان":

– وضحي لي. بم تتهمينني؟

– أتهمك بأنك تعتبرينني إحدى الشخصيات الهزلية في مسرحيات "موتسارت".

فما كان من الفتاة – التي تعلم أنه ليس عليها ما تلام عليه – إلا أن وضعت كفها على فمها لكي تكتم الضحك.

لقد ذكرها هذا الخروج كيف أن "سيلستين" هذه الخادمة الشجاعة لم تعمل على أن تكون أداة في إرباك الأسرة. ولما كانت متأثرة بالأوبرا، كان والدها قد أهداها تسجيلا لـ "روميو وجولييت" بصوت "ماري بوجيه" و"فونوغراف" لكي تتمكن من سماعه.

وكانت "سيلستين" كلما فرغت من إعداد الطعام، تسرع إلى إدارة المحرك. وكان صوت الفونوغراف يملأ أرجاء المنزل، إلى حد جعل النائب يهدد ذات يوم بإلقاء الفونوغراف من النافذة والخادمة على الباب – إن لم يكن العكس.

كانت "سيلستين" قد تأثرت.

– ليس هنا ما يسلي. أنا لا أرغب في القيام بخدمة الوسيطة مادام أنك لا تستحقين سوى المعاملة بهذه اللهجة.

كفت "إليان" عن الضحك. ترى هل "زافييه" أتى إلى هنا؟ هل ترك رسالة؟ لا، إنها مخطئة. ليس من البديهي أن يستغل الدوق نفوذه ومع ذلك! ها هو وجهها قد بدا عليه السرور. اقتربت من المائدة وأمسكت بالظرف:

– هل سلمك أحد ما هذه البطاقة لي؟

– نعم يا آنسة. وهأنا كلي خجل لتسليمه لك، كما أني أرجو أن تخجلي أنت أيضا لاستلامه!

– من هو يا "سيلستين"؟ احكي!

– حوذي عربة.

اختفى سرور "إليان" بنفس السرعة التي ظهر فيها. أمن الممكن أن يكون "زافييه" هو الذي قام بإرسال الحوذي الخاص به أو أحد الخدم.

ثم عملت على طمأنة الخادمة ، في حين أنها كانت تخشى حدوث أي سوء:

– أعدك بألا يتكرر ذلك أبداً.

ثم ضمت الورقة في يديها الضعيفتين وصعدت إلى حجرتها.

"في العاشرة صباحاً، في الشباك الذي تسلم فيه تذاكر "لا جراند رو" ستجدين كتاباً مغلقاً . ضعي فيه الورقة التي تشغلك. وإلا سوف تتعرض حياة الدوق للخطر"

بذلك . فإنهم يعرفون ليس فقط تصرفاتها وحركاتها ، لكن أيضاً أدق مشاعرها!

لم تصدق ما لحق بها من إهانات على يد الفتاة الشقراء في العربة . بدا لها أنه من المستحيل أن يكون راكب السيارة قد رغب في قلبها عمداً، في الشارع . ثم – في تفكير بذهن صاف – استعادت كل تفاصيل المشهد : غاية ما في الأمر ، لقد سقطت إذ فوجئت ولا شك في أن السائق المسكين خاف أكثر منها.

لم تصدق أن هذا الحدث كان مدبراً أو متعمداً إنها مجرد حركة عدم اتزان طردتها سريعاً من ذهنها.

لكن هذه المرة لم تستخف بالتهديد . لقد خافت من أجل حياة "زافييه" أكثر من خوفها على حياتها . ألقت نظرة إلى الساعة ، إنها التاسعة وعشرون دقيقة.

كانت تحتاج إلى أربعين دقيقة لكي تبلغ شارع "سيفرين" ولم يكن لديها وقت للتفكير . وضعت على شعرها الذي على هيئة "شينيون" مشبكا له رأس من العاج ووضعت قفازها وأمسكت بمظلتها وحقيبتها والورقة التي عزمت على إلقائها في فتحة بالوعة ، إن لم تتمكن – بدافع من الأعيب القدر– من التخلص منها.

ولم تتحقق – إلا بعد أن خرجت – من أنه كان عليها أن تخترق المعرض بمفردها وسط جموع سكان الضواحي والأجانب الذي ينزلون بالمئات من كل المحطات لتذوق متعة العربات المفتوحة ذات

الجلاجل.

دخلت من باب "تروكاديرو" لتجد نفسها في الحي الذي كانت تتمنى تجنبه : إعادة إنشاء "باريس" القديمة . سارت بمحاذاة المقاهي وراقبت دون أن تجرؤ على رفع رأسها.

كانت ضفاف نهر السين قد تحولت إلى شوارع ضيقة محاطة بالحوانيت حيث العديد من العسكريين قد أتوا لكي يتنزهوا وكانت أسر "بورجوازية" معها أطفالها ، تلتفت نحوها بلا خجل . وإذا بمهراجا ينحني أمامها ، وبدا وكأنه سوف يجعلها تتسمر أمامه بنظراته التي للمنوم المغناطيسي للثعابين .

تساءلت إذا كان المعرض العالمي لعام ١٩٠٠ ليس علامة الجنون التي تحدد نهاية العالم.

وأخيراً ، تحت – بارزة وسط الجموع – قبة الـ "كروزو" الحمراء حيث السيد "شيندر" يعرض مآذن الجوامع الموجودة في المدينة العربية الممتد حتى إلى "سان دي مارس".

جف حلق "إليان" من الغبار الذي تثيره أقدام المشاه.

كانت أيضا تنبعث من الكمان ألحان حزينة مختلطة بالحان البلاليكا الروسية لم تكن هناك حدود . كل أجناس العالم ، كل الأزياء كانت جنباً إلى جنب . تسريحة الرأس "البيجودي" تتقابل مع الرداء التركي ، و"الكيمونو" الياباني يحف بالقبعة المكسيكية دون أن تبدو الدهشة على أحد ما لذلك .

وللأسف لم تشترك "إليان" في هذا الجو المرح المحيط بها إذ انقبض قلبها . تساءلت عما يمثله هذا الرسم الذي ستقوم بنقله.

"كان ينبغي أن أقوم بتصويره – هكذا حدثت نفسها– بذلك يكون في إمكان "زافييه" موافاتي بمضمونه"

وها هي الآن قد غفلت عن قرارها الذي اتخذته في الأوبرا وهو ألا تفكر – فيما بعد – في الدوق . إن العادات تسمح له بأن يتزوج من أخرى ، وأن تكون هي سيدته ، لكنها لن تقبل مثل هذا الوضع .

لاحقتها كذلك للحظات فكرة المقاومة ، أن تعمل على إبعاد الآنسة الجميلة "فون جليكر" . لكن ما هذا النوع من الكسب ؟ لا يمكنها تقبل الحب كنوع من القتال أو المبارزة.

بعد برج إيفل المشيد منذ أحد عشر عاماً ، سمع صوت معدني في الأنحاء المحيطة . اتجهت نحوه.

وكانت كلما اقتربت ، كان صوت الحديد يبدو لها أقل من الصيحات والضحكات . وكان فريق من البنين والبنات يتدربون على المرور من بسطة إلى أخرى.

كانت "إليان" تعرف أن الرصيف الدائري يدور حول المعرض وهو الذي وصلها مباشرة إلى "جراندرو" . لا جدال بالتأكيد في أنها قد لا تسلكه ، لكنها ندمت على عدم اشتراكها في مثل هذه البهجة . أغلقت عينيها ، تخيلت لحظة الذراع الحانية حول خصرها ، "زافييه" مبتسما ولاعباً ،حاملاً إياها من بسطة إلى أخرى

"زافييه" أفي إمكانها حالياً أن تمتلك حياته ؟

ومن يؤكد لها أن حياته ستكون آمنة بعد إتمام رسالتها؟

ليس لها لقاء سوى مع كتاب. ترى هل ستتقابل مع شخص- يراقب حركاتها – عندما تقترب من الشباك؟

العجلة الضخمة ظهرت في السماء. وكانت الأعمدة التي تحملها تتجاوز العمارات المحيطة . وسرعان ما تزايد عدد المجتمعين . شعرت "إليان" بأنهم جميعاً يتجهون إلى الخزانة . كانت تندفع – رغما عنها– نحو المكان الذي كان لابد لها من التواجد فيه

هل شاهدت "خطر الموت" أتتخيلين أن الكهرباء مميتة؟

إنها مبالغة ، إنهم يكتبون ذلك لكي يبعثوا بالخوف في نفوسنا.

والآن ليس من يتقدم خطوة واحدة ، لكن في غير قلق . كان الجميع يتبادلون انطباعات "الساحرة الكهرباء" عليهم ،الكهرباء التي تغمر نهر "السين" بألف ضوء في الليل .

قاومت "إليان" ، تارة بالاستئذان وأخرى بدفع من هم أمامها إلى أن

شقت الجموع على مسافة عدة أمتار.

وكانت فيما بعد ، أبعد من ذلك تمتمات بدلاً من الضحكات .

– ما الذي يحدث؟

– يوجد شخص متألم

ضمت "إليان" حقيبتها إلى صدرها . أخذت تحرك كتفيها وساقيها حتى تمكنت من المرور من بين الجموع، وبذلك تكسب بعض الأمتار. هاهي الآن ترى شباك التذاكر وسط دوامة من القبعات الكاسكيتات وزهور وكريز.

ومن بعيد كانت تسمع دقات الساعة العاشرة . ضاعفت همتها خشية ألا تكون في الموعد المحدد. كان لابد لها بأي ثمن أن تصل إلى هدفها . عملت على الوصول إلى حيث هي متجهة غير مبالية بالصيحات .

– انتحار؟ لا

– نعم ! لقد سقط شخص من أعلى خمسين متراً.

– هل رأيته ؟

وكل الأنظار تتجه إلى أعلى ، يعانون من ضربات العصي ، الشماسي كما أن ريش الطاووس الذي يعلو القبعات كان يصيبهم بخدوش أحست "إليان" لحظة بأنها لن تتمكن من الوصول.

ومع ذلك ، كان شباك "لاجراندرو" هنا في متناول يدها، إذا مدت ذراعها ، وكانت موجة من الناس تبعدها وأخرى تقربها .

كان الموظف – من خلف الخزانة – يصيح بأعلى صوته:

– أرجوكم ! الهدوء ! إنها شائعات! يا لكم من أغبياء . لقد سقطت سيدة أثناء نزولها فأصيبت بالتواء في كعبها ، ليس أكثر من ذلك ! توقفوا ستعملون على هدم كل شيء!

وكان على حق ، لأن كوخ شباك التذاكر وهو من ألواح خشبية يهتز في خطورة . كان البعض يستند إلى الجدران والآخرون يستندون إلى الخزانة . حينئذ رأت "إليان" كتاباً مغلفاً يسقط أمامها.

– أرادت "إليان" أن تسرع ، بر أن الكتاب – وكان قد داسته الأقدام – تمزقت صفحاته. ولما خافت من أن تتعرض هي أيضا بدورها إلى ما لحق بالكتاب ، أبعدت عنها السيقان التي تمنعها من المرور . وذلك بضربات من شمسيتها، وبذلك تمكنت من الانحناء . وعندما نهضت ، مخنوقة ، لم يكن بيدها إلا صفحة الحفظ ، أي الصفحة الأولى.

وإذا بصفارات تعلن وصول الشرطة . وقف الجميع في الحال . وهاهو لا وجود للكتاب . إنها أجزاء من الغلاف ومن الأوراق ممزقة ومبعثرة .

عندما عنفها أحد حرس الأمن لكي تقف في الصف مع أولئك الذين يرغبون في تناول لتذكرة لـ "جراندرو" ، فهمت ابنة أخي عضو مجلس الشيوخ أنه لم يعد أمامها سوى العودة إلى منزلها.

حبست دموع الغضب التي ملأت عينيها ، وعادت على عقبيها . ثم عاد النظام . وكانت أنغام وأغاني الفونوغراف تتردد بلهجة تظهر فيها لثغة الراء.

كانت "إليان" عائدة بخطى سريعة . انفجرت ضد غباء الجموع. "بالنسبة لكعب مكسور ، كانت ستحدث مائة حالة وفاة ، لو لم يتدخل البوليس" لماذا أعطوها موعداً في هذا المكان ؟

كيف ستتصرف الآن؟ كان لابد لها من إخطار الدوق "ديبون" .

– ليانوشكا" كيف تأتين إلى هنا . الكي تضلي ؟

– ألست برفقة أحد؟

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يبدو لها فيها صوت "بوريس يوكوسوف" مقبولاً.

– وآسفاه أفي إمكانك إعادتي إلى أبواب المعرض؟

أراد أن يتناول يدها لكي يحملها إلى شفتيه ، لكنه اصطدم بقبضة يد متقلصة : كانت "إليان" تمسك فيها – قابضة بشدة– صفحة الكتاب التي تمكنت من الحصول عليها.

كلمة رقيقة ؟ موعد مرح؟ دعيني أرى يا صغيرة ! هكذا كان الأمير يظهر فظاظته . أمسك بقبضة يدها ضاحكا ، وأجبرها على فتح أصابعها . لم تقاوم ابنة أخي النائب خشية الفضيحة.

– إنك من الأوباش يا سيد! إن هذه الورقة بيضاء ، وهي الصفحة الأولى من كتاب أرسله لي والدي.

هكذا لاحظ عندما قلب ببطء الورقة المفروكة من جانبين.

كانت الورقة من كتاب يأتي بعد – التجليد– من مكتبة "دلسال" شارع "السيد الأمير" "ميسييه لي برانس" .

ولم تهتز "إليان" . وفي الحال ، شعرت بأنه مهم جداً الاحتفاظ بهذا الاسم وهذا العنوان في ذاكرتها . لذلك أخذت تكررهاعدة مرات مطمئنة بأن الأمير سوف يعتبر صمتها غضباً.

– "ليانوشكا"، لا تتحاملي علي . إنها أيضاً فكرة جيدة الاحتفاظ بورقة بيضاء!

كذبت :

– لقد اعتبرتها تعويذتي ، وهي لا تفارقني أبداً.

– تجلب لك الحظ ! كم أني معجب بالفرنسيين هل استخدمت السحر لكي أتواجد في طريقك ؟

– كان من الممكن أن أستغني عن هذا اللقاء!

وكان الرد صادقاً إلى حد أن "إليان" أدانت نفسها على أنها شعرت بالاطمئنان عندما نادته لكي لا تكون بمفردها وسط هذه الجموع الباريسية التي لم تعتدها بعد . إن الوحدة أفضل من صحبة شخص لحوح ، مزعج.

وها هو الأمير يحوط وسط الفتاة مثل الأفعى اليقظة ، وجذبها إليه.

– لا تخافي ، ساكتم السر– أحلف لك . "تونتون" لن يعرف شيئاً عن ذلك.

حاولت أن تتخلص منه. ثم أردفت :

– إنك تقوم بتبادل دنيء ، بتعهدك بأن تؤكد لي تواطأك معي .

هكذا تصرفت لأنها شعرت نحوه بالحقد ، وهو الذي ولده فيها ، حتى إنها أصبحت عنيفة ، غير قادرة على تمالك نفسها .

ثم غرست – بكل ما لها من قوى – طرف شمسيتها في الحذاء الذي يرتديه الأمير .

شحب هذا الأخير وتراجع إلى الخلف بخطوة . وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه الممتلئتين . غير أنه اقشعر . ثم عمق نظراته – في صمت – في عينيها ، وألزمها أن تخفض عينيها . ثم في حركة مرحة – لكن عن بعد – مد لها ذراعه :

– ألم تتوسلي إلي لكي أرافقك؟

بالتأكيد كان "بوريس يوكوسوف" وضيعاً ونذلاً . كل كلماته – استخدام الفعل "تتوسلي" مثلاً – تهدف إلى إذلالها . غير أن "إليان" كانت تتوقع أنه لن يتركها . غير أنها حتى لو رفضت الآن صحبته فهي مضطرة إلى احتماله على الرغم من أي شيء . وفضلت – إذ إنها أيقنت عن حكمة – أن تقبله مرغمة . ومع ذلك، تجاهلت الذراع الممدودة لها .

– حسناً . ساعدني على الخروج من هنا .

عاودت مسيرتها بخطى سريعة ، متتبعة خطى "يوكوسوف" بلا مشقة . ولم يتبادلا الحديث من بعد . ومع مرور الوقت ، غفلت عن هذا الدخيل، واستعادت حبل أفكارها .

كان لابد من إيجاد وسيلة لكي تلتقي بـ "زافييه . إذا كان "نيستور" لا يزال يعمل في حظائر "الإليزيه" ، فقد يكون في إمكانها تحميله الرسالة عن طريق الحوذي . غير أن تأنيب "سيلستين" لها في الصباح كان يسمح لها باستخدام الحوذيهل عليها أن تتوجه بنفسها عند آل "إيبون"؟ لن تتراجع أمام ما يحتمه واجبها الملح : إنقاذ حياة رجل ، سواء أحبته أو لم تحبه .

وعندما وصلا إلى الـ "تروكاديرا" كانت قد اقتنعت بأن الحب ليس هو

المحرك الرئيسي الذي يدفعها إلى التصرف على هذا النحو .

تقدمها الأمير دون إخطارها ، وقطع عليها الطريق ، وقد بدا نادماً :

– "ليانوشكا" لقد ورثت الطابع المندفع من أجدادي كم من مرة اندفعت لكي أجد نفسي عاجزاً عن السيطرة على ذاتي . كيف تفسرين ذلك؟

أردفت وقد فوجئت أكثر من أن تكون قد تضايقت :

– لا أستطيع شرح ذلك!

ثم مد ذراعه مشيراً إلى مبنى مكسو بالذهب ، لكنها لم تنبهر به .

– إنك لا تعرفين قصر الغجر إلا إذا كنت قد قمت بزيارته بصحبة أحد النبلاء الروس .

هكذا أكد

– لم أزره قط ، وسأكتفي بالبطاقات التي أعدت عنه .

وإذا به يرفع ذقنها ، وكأنه يرغب في إلزامها بتأمل عظمة هذا القصر .

عندما غمزت "إليان" بعينيها لكي تتحقق منه ، شاهدت النسر ذا الرأسين الممسك في مخالبه بكرة أرضية .

شعرت أن الأمير كان من أولئك الذين لا يتخلون عن فريستهم قبل أن يلتهموها .

هزت ذقنها لكي تتخلص منه .

قال لها :

– كفي عن ذلك . نظرات الناس تلاحقنا .

ثم اقترب منها، وهو يطلق ضحكة ساخرة :

– هاهي "فرنسا" : صغيرة ، حقيرة ، مازالت تعيش في أفكارها القديمة !

ضم أصابعه على البشرة البيضاء . عمل على خنقها برفق ودفع بها إلى الخلف بحيث إنها . عجزت عن المقاومة .

ثم قال لها:

– آه منك أيتها الفرنسية المخادعة كنت أتوقع أن تعضيني ، وأن تخافي على سمعتك!

كان يؤلمها . ولما شعرت بأنها مقهورة من هذه القسوة ، توسلت من جديد : "دعني" . غير أنه اقترب منها بوجهه المرعب؛ وقال بنبرة وديعة:

– سأقتلك . سوف تموتين إثر قبلتي يا "ليانوشكا" .

– عجزت "إليان" عن احتمال نظرته الثاقبة ، كما أنها كانت لا ترغب في أن يقبلها . وإذ تقززت أغلقت عينيها.

ابتعد عنها في عنف بحيث إنه اضطر إلى مساندتها في الحال لكيلا تسقط .

ثم قال مؤكداً:

– يوم أن تدخلي إلى قصري عن طيب خاطر ، ستكونين لي.

الفصل الثامن

– كما لم أسألك إلى أين أنت ذاهبة هذا الصباح ، لا أسألك الآن من أين أنت آتية.

لكن ، اسمعيني جيداً يا ابنتي، إنها المرة الأخيرة!

ذهلت "إليان" عندما دخلت إلى الدهليز . لم تشعر بأنها عنفت . بل بالعكس كانت لهجة عمها مرحة ، وبعض المكر كان بادياً فيها.

فما كان منها إلا أن اتخذت نفس اللهجة ، قالت مطمئنة:

– هل لك نية حبسي في الدار؟

– لست بعيدة عن الحقيقة ! ماذا سيكون الرأي العام عن سكرتير الدولة للشؤون الخارجية الذي يترك ابنة أخيه تفعل ما يحلو لها؟!

ثم تعلقت في عنقه:

– سكرتير الدولة ! كم أني سعيدة بالنسبة لك. إنه مركز مناسب

تستحقه تماماً!

"أرماند مونفور" سلك حلقه ودفعها في تواضع . كان لا يجيد التظاهر به:

– ليست ساعة التهاني الآن. لقد بدل الوزير كل مشاريعي وينبغي أن أعيد بعضها من الصفر . باختصار ، لدي عمل كثير جداً!

– أراهن أنه ينبغي قبل كل شيء ، مراجعة الحديث الذي أعددته للمؤتمر غداً.

هكذا أغاظته "إليان" .

أخفض رأسه ، غير قادر على إخفاء أن الفرحة لبلوغه قمة جديدة تغلبت – إلى حد ما– على ما كان يشعر به من ضيق بضرورة تغيير مشاريعه . ومع ذلك– لكي يحفظ ماء وجهه– اتخذ لهجة شديدة ، فظة بعض الشيء:

– أنا لا احب الإلماعات كثيراً يا آنسة!

– أنا لا ألمح بشيء على الإطلاق . إني مسرورة لتقدمك هذا غير أني ظننت – هكذا أضافت – أنك لعوب حتى إنك قدمت موعد تحويل مشاريعك : الآن مسابقة "باريس دوفيل" مدينة لك بوجودها ، وكل النجاح سوف يعم عليك !

سحب في مودة خصلة من الشعر الأسود ساقطة من قبعتها :

– يا مداهنة ! لا تجعليني أذكى مما أنا عليه في الانتظار يجب أن أحرر خطبة لمجد الأوتوموبيل.

– للسيارة الأوتوماتيك يا عمي.

هكذا قالت مصححة .

استطرد :

– دعي إذن" السيارة الأوتوماتيك "للمترفين المسنين بالأكاديمية . الجميع يقولون "أوتوموبيل" وهي الكلمة التي سوف أستخدمها في حديثي. أليست هي الكلمة التي يستخدمها "زافييه ديبون" ؟

حكت رأسها مفكرة . لقد غيرت زيارة الوزير من وجهة نظر

عمها . كما كانت لا تتوقع أنه- بعد تحوله - يذكر الدوق كمثال .

دهشت :

- هل أخطرت السيد "ديبون" بنياتك الجديدة ؟

- وكيف يتم ذلك! إني على موعد معه في مقره حالياً. إذ يلزمني أدنى تعارف للدفاع عن قضيتي .

هكذا وضح عمها.

قفزت "إليان" :

- آه! سآتي معك ! أرجوك دعني آتي معك. لابد من ذلك!

- لم تكن تأمل أبداً- عند عودتها من المعرض - في الحصول على مثل هذه الفرصة المفاجئة لرؤية "زافييه" . وهنا تبددت حالة عدم الارتياح التي كان قد تسبب لها فيها الأمير "يوكوسوف" .

ولم يعد للفتاة حالياًما يشغل فكرها سوى مرافقة عمها ولقاء الدوق "ديبون" وموافاته بما لاقته من تهديدات .

رفع "أرماند" حاجبه:

- لا أرى أي داعٍ لمجيئك في الوحل . هل هذا يعجبك إلى هذا الحد؟

- طالما قررت مراقبتي ، أليست أفضل وسيلة هي اصطحابي لك حيثما توجهت ؟

تنهد العم:

- يا إلهي ، كم أنت ماكرة ! نعتقد أننا نتعامل مع صبية وها نحن ذات صباح نجد أنفسنا في مواجهة إحدى تلك الفتيات الماكرات المخادعات !إني أتساءل عما يكون رأي السيد "دينون" في وجودك؟

- سوف يسر ، أؤكد لك ذلك!أليس أمله الوحيد الآن هو إرضاء سكرتير الدولة للشؤون الخارجية؟

انطلقت الخيول عبر المناظر الريفية الخلابة التي كان يتطلع إليها السيد "أرماند" مبتسماً. وكانت السعادة تبدو عليه، إذ كان يستعذب في صمت منصبه الجديد .وكذلك "إليان" لم تكن لها

رغبة في الكلام.

كانت مثبتة النظر على المقعد المواجه لها . لقد أفادتها العجلة - التي استعدت بها لمرافقة عمها في هذه الزيارة للدوق - في نسيان ما لحق بها من ضيق عند المعرض العالمي . غير أنه لم تفلح لا المناظر ولا اهتزازات العربة على هذا الطريق غير الممهد ، في خمد تيار أفكارها .

ارتجفت عندما تذكرت هذا الجمع الذي كان يدوسها تحت الأقدام ، ثم عضت على شفتها من الغيظ عندما تراءت أمامها صورة الكتاب المداس من الناس والذي كان من المفروض أن تضع فيه الرسم. كانت "إليان" محتفظة بالورقة بعناية داخل قفازها . ثم ابتسمت أمام فكرة مشاهدتها ثانية لـ "زافييه" . وفي الحال اقشعرت إزاء تذكر فظاعة تصرفات "يوكوسوف" العنيفة التي اشمأزت لها.

لم يكن في مقدورها إحاطة عمها علماً بما كان للأمير من حرية قد سمح لنفسه بتوجيهها إليها : كان الأمير قد أفاد من هذا الموقف ، ولذلك ازداد احتقارها له. غير أن فكرة رؤية هذا الرجل مرة أخرى كانت تجعلها تحمر من الخجل." ومع ذلك- هكذا حدثت نفسها- هو الذي ينبغي أن يخجل. لماذا ينبغي أن تحتمل النساء دائماً أوزار الرجال؟ هل سيتبدل الحال ذات يوم" ؟

بعد قليل توقفت عربة "أرماند مونفور" أمام فناء فسيح مبلط.

هناك كان "زافييه ديبون" قد أقام محله بالقرب من أرض يكسوها العشب والتي كان يستخدمها "سانتوس دیمون" أحياناًفي أبحاثه.

خمدت "إليان" تاثرها . تكبدت مشقة حتى تتخطى هذه الحواجز . لكي تصل إلى هدفها الوحيد : أن تحذر الرجل الذي أحبته من الخطر الذي يهدده.

فور سماعه صوت خطوات الخيول ، خرج الدوق من محله الزجاجي الذي يعمل فيه . كان يرتدي قميصاً وبنطلونا أسود واسعاً يساعده على حرية الحركة مظهرا رشاقة قوامه . وفي هندامه هذا رأته "إليان"

أجمل مما هو عليه غير أن صورة الآنسة "فون جليكر" الظافرة حالت بين الحلم والحقيقة.

أردف "زافييه" بحرارة:

– أهلاً بك . إني سعيد للقائك.

ثم انحنى أمام "إليان" . وفي ضوء الصيف بدت مع ابتسامته ، بعض السخرية في عينيه :

– الآنسة

– لقد أصرت ابنة أخي على مرافقتي.

هكذا قاطعه "مونفور" وقد شعر بالحرج لتواجد فتاة في هذا الحقل العملي الخاص بالميكانيكا.

قال "زافييه" مؤكدا وهو يلقي إليها نظرة خاطفة:

– لا داعي للاعتذار . لا بأس من أن نرى أن الشباب يهتم بأعمالنا المتواضعة.

أحست الفتاة فجأة بشيء من الحقد نحوه . ما الذي يبغيه بمعاملتها على هذا النحو مثل طفلة أمام عمها؟

تفرس السكرتير الجديد ابنة أخيه التي كانت الثورة بادية عليها محركاً شمسيته الحريرية . ثم ضحك.

أضاف:

– إن شبان اليوم يرغبون في مشاهدة كل شيء ومعرفة كل شيء.

قالت من بين أسنانها:

– وأنت ذاتك في ريعان شبابك يا سيد "ديبون".

أضاف "مونفور" بصوت منخفض:

– أرجوك ، لا تكوني وقحة.

تغاضت الفتاة عن نصيحة عمها، وواصلت :

– أعتقد أن السيد "ديبون" اعتبر كلامي تهنئة . ألا تعلم يا عمي أنه خطيب فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها؟

قاطع عضو المجلس في حدة ، وكان هذا الحديث قد ساءه :

– أهنئك على ذلك .

في الحال، قطب "زافييه" حاجبيه، وقال دون أن تنفرج أساريره كما في نزوة:

– وأنا كذلك!

ثم متجاهلاً "إليان" ، اصطحب عمها نحو الهناجر:

– تعال سأجعلك تزور الترسانة.

تبعتهما الفتاة. ما الذي ترجوه الآن من رجل بمثل هذه الوقاحة؟

لا شك في أنه لا يستحق ما تكنه له من مشاعر ، لكن هل في إمكانها ضبط عاطفتها ؟ لم تمنحه سوى قبلة ، لكنها الآن تشعر بأنها منحته روحها . والآن على الرغم مما يبديه نحوها من لامبالاة .فكرت أنه معرض لمخاطر مظلمة أصبحت تعذبها أكثر مما أبدى لها من إساءة .

أسرعت الخطى لكي تلحق بهما. كانت تأمل أن تتمكن من أن تهمس له "يجب أن أتحدث معك" عندما يفسح لها الطريق لكي تمر .

وسوف يجد بالتأكيد الوسيلة التي تمكنه من لقائها بعيداً عن عمها . وإذا بـ "نيستور" يظهر في الفناء، ويديه يغطيها الشحم . عمل "زافييه" على تقديمه على أنه أول شريك له في العمل.

انحنى "نيستور" في حركة احترام :

– سيدي النائب ! من كان يظن رؤياك ذات يوم هنا؟!

اتخذ "مونفور" في الحال هذه اللهجة الأبوية التي يستخدمها مع الشعب:

– إني أعرفك ، أنت ! لقد كنت سائسا في الإليزية.

– لا تقلق سوف أعود إليها قريباً.

– إلى الحظائر؟

– لا إلى الإليزية!

ولكي يختم سكرتير الدولة هذا الحديث الذي لا يرضيه كثيراً .

قال:

– على الأقل من الممكن القول بأنك تتمتع بالثقة في النفس.

– لي ثقة في الأوتوموبيل يا سيدي، لأن الحكومة ستكون – بعد نجاح "باريس – دوفيل" في حاجة إلى ميكانيكيين أكثر منها إلى سياسيين

– ربما أنك تتوقع الكثير؟

قطب "نيستور" أنفه:

– نرى ذلك

ثم التفت فجأة نحو "إليان":

– أرغب في أن أريك شيئا ما يا آنسة "مونفور"

– هل تعرفان بعضكما؟

أمام دهشة عمها، قالت "إليان":

– نعم.. لقد كان لنا لقاء في افتتاح الـ"متروبوليتان" مع السيدة "دي سان ليجيه"

استفسر السيد "مونفور" دون أن يلاحظ ارتباك ابنة أخيه:

– لا شك في أنك كنت هناك يا سيدي الدوق؟

– لقد كان في الواقع من أجمل أيام حياتي.

وكان أثناء ذلك يعمق النظر إلى "إليان" مركزا على كل كلمة ينطق بها. هل يسخر، هل بعد أن أصبحت له خطيبة؟ وصلت به درجة الشراسة أن يذكرها باللحظة التي التقت شفاههما فيها؟ لو كانا بمفردهما لسألها عن سبب تصرفها، لكنه قد أفاد في دهاء من حضرة عمها.

تبعت "إليان" "نيستور" الذي جعلها تدور حول الورشة.

كانت الخراف تأكل العشب. وبعض البقر. كانت قد اختارت ظل حاجز خشبي ناعسة.

تقدم الصبي مع "إليان"، وفي الضوء الخافت رأت "إليان" شيئاً ما مغطى بقماش.

رفع "نيستور" الغطاء وفي ابتهاج صاح:

– ها! هذه هي التي سوف تجوب "باريس– دوفيل"!

وهي سيارة مكشوفة، كانت أشبه بجوهرة مخبأة في مخزن يعلوه الغبار.

تأثرت "إليان" لما أبداه "نيستور" من مشاعر أكثر مما كانت تتأثر به عند مشاهدة جمال الـ"بانتيون".

قال لها الصبي متحمساً:

– أردت أن تكوني أول من يراها. لقد انتهت بفضلك. أنت تعلمين ذلك.

– بفضلي؟ أنا؟

أشار "نيستور" بأصبعه إلى الموتور:

– نعم إن القطعة التي سرقت مني بداخله.

إن تذكر الظروف التي التقيا فيها أيقظت انتباه الفتاة. كانت على يقين أنه في وسعها أن تشرك "نيستور" فيما لحق بها من مغامرات. ومادامت لن تتمكن من الاقتراب من "زافييه" اليوم، فما عليها إلا تسليم الرسم إلى "نيستور"، مع التأكيد بأن يوصله إلى الدوق.

– إنه جزء مهم جداً، كما سمعت من السيد "ديبون"؟

– قشة! إنها غرفة الانفجار.

– أليست خطيرة؟

سألته مترددة.

– إنه اختراع للسيد الدوق. لقد أخبر بأنه ينفجر وكأنها ضربات القلب، في الميكانيكا.

– وهل "زافييه" على علم الآن بسبب سرقة هذه القطعة؟

– آه! لم يرسلوا لنا كلمة صغيرة على ورق أزرق (وكان الأسلوب المتبع وقتئذ بدلاً من البرقية الحالية) لكي يوضحوا لنا الأمر.

بدأت "إليان" في هدوء:

– اسمع يا "نيستور". لقد لحقت بي أمور سيئة منذ ذلك اليوم.

قاطعها:

– وللسيد "ديبون" أيضاً! لم يعد كسابق عهده . لحسن الحظ ، إن وجودي يساعد على دفعه إلى العمل :إنه دائما شارد.

ابتسمت . ثم عادت إلى جمودها:

– لقد استلمت تهديدات.

– تهديدات ؟

– نعم ، ولابد من إحاطة الدوق علماً بذلك وهذا الصباح أيضاً ، حاولوا أخذ هذه الورقة مني.

ومدت الورقة إلى الصبي.

– إنه من أجل السيد "زافييه" . لقد سبق لنا أن تكلمنا معاً بشأن هذه الورقة أثناء الافتتاح. وينبغي أن أريه إياها لكن يا "نيستور" لابد من إعادتها لي هذا المساء .اتفقنا؟!

– أعدك بذلك !

كان "نيستور" قد استمع إليها بانتباه، لكنه كان مشتاقا لمعرفة ما الأمر – وعندما فتح فاه لسؤالها ، إذا بصوت خطوات الخيول تقترب من المكان الذي هما فيه.

قال ببساطة:

– إنها زيارة .

ثم أعاد غطاء السيارة متمتماً وموجهاً كلماته إلى العربة الأوتوماتيك.

– طاب مساؤك ، يا أميرة!

توقف ركب فاخر وسط سحابة من الغبار ، أمام الفناء . خرج الدوق "ديبون" من الورشة لاستقبال الآنسة "فون جليكر" التي– بمعاونة الوصيف – خرجت من العربة . وكان برفقتها وصيفة أعطت الأمر لها بالبقاء في السيارة .

ودون أن تعير "إليان" اهتماما أكثر من "نيستور" أسرعت النمساوية الصغيرة إلى لقاء "زافييه" في اندفاع.

– في أي زي مضحك أجدك يا صديقي ! هل غفلت عن نزهتنافي الغابة التي وعدتني بها؟

رفع خصلة شعر شقراء نازلة من تحت وشاح القبعة ذي اللون الفيروزي وأبعدها عنه في رقة؛ ثم قال لها في حنان بلهجة توسل:

– دعك وهذه التصرفات الصبيانية لكي أقدم لك الآنسة "مونفور"

لم تجد "إليان" القوة لاتباع "نيستور" في الورشة لكي تلحق بعمها الذي كان لا يزال يتناقش مع الميكانيكيين . وقفت شاحبة تنظر إلى المشهد الذي يتم على بعد عدة خطوات منها. كانت قد سمعت النطق باسمها دون أن تتحقق أنهما يتحدثان عنها.

ألقت الآنسة "فون جليكر" إلى ابنة أخي سكرتير الدولة نظرة تحد:

– تقصد يا "زافييه" أنك ترغب في تقديمي لها؟

هكذا قالت مصححة في تعال.

– لا لقد سمعت جيداً: سوف أقدمها لك.

هكذا أفحمها وقد نفد صبره.

ثم عندما أخذت تدبدب بقدميها وتعض على شفتيها في تصرفات مراهقة– أخذ الدوق "ديبون" يضحك:

– إنك حالياً في صف صبية مدللة تستحق إعادتها إلى منزل والدها لكي تحصل على علقة!

– إنك تهذي! إن هذه الفتاة تسمعنا!

وكانت أثناء ذلك قد أشارت إلى "إليان" بحركة شرسة . في هذه المرة، لم يضحك الدوق . بل لقد اهتزت أطراف شاربه من الغيظ.

– والآن ، طالما توقعت أن الآنسة "مونفور" قد سمعتك ، فأرجو أن تقدمي لها الاعتذار . ولن أسمح لك بسب أي شخص كان تحت سقفي، هل فهمت يا "إيما" !

كانت "إليان" تتطلع إلى مودتهما المشاركة في شيء من المرارة . وإن كان "زافييه" يعنفها عندما يتضايق من تصرفاتها غير المتعقلة ، إلا أنه كان يعامل "فون جليكر" بالضبط مثل فتاة ستشاركه حياته .

ودون أن تتحرك رأته ممسكاً بشدة بذراع الفتاة لكي يصطحبها أمامها.

– ها هي "إيما" فون جليكر" ، يا عزيزتي التي أعتقد أنك سمعت عنها . أليس كذلك ؟

هكذا ركز "زافييه" ساخراً.

لا شك في أن هذه الكلمات تذكر بأنها الخطيبة التي ذكرتها أمام عمها قبل ذلك بدقائق . ولم تقدر على الاحتمال . ما الذي يحدث أمامها ، بينما كانت قد عزمت على ألا تتضايق ، إذ إنه ليس أي حق في أن تغار منها لقد عجزت "إليان مونفور" عن معرفة ما دفعها إلى الإجابة مع ابتسامة غريبة:

– في الواقع ، إن كل "باريس" على علم بأن هذه الفتاة مدللة.

– من الممكن أن يقال هكذا عن ذويك . إنك آتية من الريف على ما أعتقد ؟

استطردت "إيما" مع الرغبة في سبها.

هذا الهجوم الصريح عمل على إعادة السكينة والاطمئنان إلى نفس "إليان" . لذلك أعلنت دون إظهار أي حقد أو نبرة حدة:

– نعم ، إني وافدة من قرية حيث تتعلم البنات . كما تذكرين– منذ الطفولة على ألا تتصرفن مثل ظل فم "إيما" مفتوحا على "آه" لم تتخط حلقها الجميل.

اضطر "زافييه" . أن ينصرف:

– الآن أتركك يا آنسات لأن أعمال جادة كثيرة في انتظاري.

أمسكت به "إيما" متوسلة:

– ونزهتي ، ستذهب لكي تبدل ملابسك . أليس كذلك ! ستصطحبني إلى الغابة؟

كرر الدوق وقد كاد صبره ينفد :

– تعقلي .

في هذه الأثناء ، كان "أرماند مونفور" قد وصل بالقرب منهم، دون

أن يلمحه أحد . كان واضحاً أنه أسف لعدم وجود الدوق أثناء زيارة الورش ، لكنه عمل على إخفاء ذلك.

غير أنه – مع ذلك – قال:

– أفهم أن هذه الآنسة الجذابة ترغب في وجودك ؟

عمل الدوق على تلطيف الموقف ؛ لذلك قال:

– لا غاية ما في الأمر أنها في حاجة إلى قبعة!

كانت لـ "إيما" القدرة التي للأطفال من الدموع إلى الضحك مباشرة ومن الغضب إلى المرح. وها هي في حالة سذاجة ، بلا أفكار رجعية:

– "زافييه" على حق يا سيدي السكرتير . إذا وافقت على مرافقتي فسوف أبتهج .

انفرجت أسارير السيد "مونفور" أمام هذه الدعوة غير المتوقعة . و– كرجل اعتاد تقييم وقته – رأى في الحال إمكانية تخلصه من تلك الدخيلة ومن ابنة أخيه ، التي كان يعتبر – دائماً– أنه لا مكان لها هنا فما كان منه إلا أن اقترح :

– إذن .. لماذا لا تقومان كلتاكما بهذه النزهة ، أعتقد أنك يا "إليان" لا تجدين أي مانع في اصطحاب الآنسة "فون جليكر" . أعتقد ؛ كادت تضحك . لن يغفر لها عمها رفضها ، وتمنت أن "إيما" تكون أول من يقبل هذا العرض. وبدلاً من ذلك ، سمعت الدوق "ديبون" يعزز في شيء من السرور الماكر :

– فكرة رائعة ! أرجو أن تكون قد أعجبتك يا آنسة "مونفور" ؟

حينئذ صاحت "إيما" :

– عن نفسي إني مسرورة!

ثم أمسكت بيد "إليان" وقالت:

– تعالي.

تمتمت هذه الاخيرة:

– لست أدري

لكن الفتاة الصغيرة أدارت ظهرها للرجلين وقادتها.

ولما ابتعدتا تمتمت في حركة طفولية:

– أطلب منك العفو عما سلف.

وها هي "إليان" فقدت فرصة لقاء "زافييه" مادام أن عمها موجود. وها هي وضعت ثقتها في "نيستور". إن هذا الاسترخاء في الغابة سوف يساعدها على نسيان همومها ولو لحظة.

جلست الفتاتان في العربة كل في مواجهة الاخرى التي لا تتحدث إلا الألمانية. وعندما عادت الوصيفة إلى مكانها في الخلف، اختلست "إليان" النظر إلى "إيما فون جليكر".

إن هذه الساذجة قد تكون قوية بالنسبة لها، لأن المقاومة إن كانت هناك مقاومة ستكون غير متساوية. من جانب فتاةلامعة من النبلاء ذات جمال أخاذ وذكاء حاد، ومن جانب آخر، قروية لا تستطيع تقديم إلا قدرة حبها.

وكأن "إيما" قرأت في أفكار رفيقتها:

– إنك حقاً جميلة جداً! من الغباء أن تخشي جمال الأخريات ألا ترين ذلك؟ عن نفسي، عندما أتزوج سأسعى إلى أن يكون كل المحيطين بي ذوي مظهر حسن وإذا حدث أن "زافييه" انجذب لإحدى صديقاتي، فسأتجنب ما هو أسوأ بعدم تأنيبه. ما رأيك؟

كذبت "إليان":

– لم أكن أعلم أنك ستتزوجين.

– أتتخيلين أني سأمكث بلا زواج؟

– أقصد إني كنت أجهل أن الدوق "ديبون" خاطب.

– إنك الوحيدة! أعتقد أنك آخر من تعلم.

عملت ابنة أخي عضو مجلس الشيوخ على التقرب منها. ترددت في توجيه سؤال خاص إليها لكنها لم تتمكن من الامتناع سألتها بحمية:

– زواج مناسب؟

– وهل يجد غيره؟

– الحب؟

ها هي العربة تسلك طريق الغابة في "بولوني". على الرغم من وجود الوجوه المشرقة تحت القبعات أو الشماسي، كان هذا الوضع لا يعتبر مجرد متعة إنما التزامات اجتماعية. كان الغبار خانقاً. راكبي الدراجات، ذوى الأحزمة العريضة من قماش الفانلة الأحمر على بنطلوناتهم المنقوعة، وقد شعروا بالتعب، يروون ظمأهم بكوب كوكا أو كوكتيل أمريكي. فتيات مسترجلات في جيبات درابيه وفرسان يضعون نظارات بعين واحدة يتجولون في كل الأماكن. وكانوا حقاً قد بدأوا – منذ انتشار السيارة الأوتوماتيك – يمنعوهم من التجول في شوارع "باريس".

استطردت "إيما" في الحال:

– أشعر بكل هذه المخالفات، لكني لا أستطيع مقاومة نشأتي.

وقد انتزعت "إليان" من تأملها للمتنزهين، فهمت معنى هذه الكلمات عندما واصلت رفيقتها:

إن الشعراء يتغنون بأن الحب هو أسمى المشاعر؛ غير أن الوالدين يسمعونا بأنه غير لائق بأوساطنا

عادت "إليان" إلى حديثها وسألتها:

– أتحبين "زافييه"؟

– أحبه لأني لابد أن أتزوجه.

– كان المفروض أن تحبيه لكي تتزوجيه أم لا؟

– إذن أنت لم تفهمي ما وضحته لك الآن؟ كم أني أحسدك! ليست لي صديقات. إن الفتيات اللاتي في مثل سني غبيات ومدعيات "زافييه" يعاملني مثل طفلة. علمني كيف أصبح فتاة جديرة به.

وكانت دمعة لامعة تسيل بطول أهدابها الشقراء.

وكانت الملامح القاسية قد هربت من وجه الفتاة النمساوية. ما كان قد صدر منها من سخافة قد اختفى، وبدا لها لعبة رديئة، مضادة

لطبيعتها العميقة.

استسلمت "إليان" لسحر المراهقة التي عادت إلى نفسها وأبدت نحوها كل لطف ومشاعر طيبة.

سألتها "إليان" أيضاً:

– وإذا قرر "زافييه" الزواج من فتاة أخرى؟

– مستحيل ! هو أيضا ملزم بالخضوع للقوانين التي يفرضها علينا مستوانا الاجتماعي.

ولم يكن في الخبرة الوائقة التي تكلمت بها الآنسة "فون جليكر"، مايشير إلى التردد . دون أن تظهر شيئاً شعرت "إليان" بأن شيئاً ما يكسر بداخلها . مهما كانت الظروف ، عليها أن تنسى "زافييه" و"زافييه" يجب أن ينساها . إن راحتهما متوقفة على ذلك.

شعرت بشيء من الإعجاب بالمراهقة الصغيرة التي– وقد اعتادت السيطرة على مشاعرها – أخذت تحيي من داخل عربتها ، متبعة برتوكول محدد: الابتسام للأصدقاء، إشارة بالرأس للعلاقات، نصف ابتسامة لمن هم في عربات لا يجرها سوى .حصان واحد ، أي الأقل مستوى.

والآن وقد عرفت "إيما" خشيت من أن تجعلها تتألم ، بقدر ما هي متألمة هي ذاتها من موقف بلا مخرج . عادت إلى القرار الحكيم الذي كانت قد اتخذته ذات ليلة في الأوبرا:

عليها أن تتجنب حتماً رؤية "زافييه" مرة أخرى ولا تفكر فيه أيضاً.

الفصل التاسع

عندما أنزلت عربة "إيما فون جليكر" "إليان مونفور" أمام منزلها ، دهشت ابنة أخي سكرتير الدولة لرؤية سيارة جميلة تركن هناك . والسائق ينفض عنها الغبار الذي يعلوها . منذ الصباح ذاع خبر تعيين

عمها في المنصب الجديد وكذلك تغيير موقفه بالنسبة لسباق "باريس– دوفيل" لذلك لم يتردد أحد في المجيء عند السيد "مونفور" في عربة بلا خيول.

التفتت الفتاة لكي تشاهد بعينيها العربة التي أوصلتها أشارت لها "إيما" بيدها علامة وداع أخيرة . حينئذ شعرت "إليان" بالتعاسة والاطمئنان في آن واحد . إن الحقيقة المرة أفضل بكثير من الأمور الغامضة والآمال الواهية والأحلام الكاذبة . لم يكن من حقها تحطيم حياة الصغيرة "إيما" .

إذا كانت قد حصلت ذات يوم على اهتمام "زافييه" بها قبل معرفة الروابط التي كانت بين أسرتي "ديبون" و"جليكر" فيجب عليها الآن السيطرة على مشاعرها ، وتجرع آلامها بمفردها . ألقت نظرة سريعة على السيارة الـ "رينو" الآخر موديل. ثم اجتازت المدخل وعزمت على الدخول عن طريق المطابخ حتى تتفادى مقابلة الزائر أياً كان.

لكنها مطت شفتيها : لقد عرفت أنها السيارة التي كانت قد التقطت لها الصور مع الماركيزة "دي سان ليجيه" . فكرت في الحال أن السيارة ملك الأمير "يوكوسوف" وفكرة تواجدها في منزل في مواجهة هذا الرجل جعلتها تقشعر من الاشمئزاز .

كانت "سيلستين" تدندن . أضحك عندما أرى نفسي بهذا الجمال أمام المرآة " اثناء اهتمامها بإعداد الشاي وخلافه .

– مساء الخير يا "سيلستين" . لقد سررت عندما رأيتك بمثل هذه الحالة المزاجية الطيبة . هل عمي عنده زائر؟

– إنهما السيد "بانهارد" بنفسه والسيد "رينو" شخصياً في انتظاره في الصالون.

– الأمير "يوكوسوف" معهما؟

– لا، لكن الماركيزة حضرت مع السيد "بانهارد".

وإذ اطمأنت "إليان" أصبحت لا ترجو إلا التواجد بمفردها.

– لا أعتقد أن هناك ضرورة لتواجدي مع هذا العالم سأذهب إلى حجرتي . يا "سيلستين" .

لم تجد الوقت الكافي لكي تنصرف لأن مدام "دي سان ليجيه" . وقد اتخذت دور ربة البيت – قررت تقديم الشاي بنفسها ودخلت إلى المطبخ في نفس اللحظة :

– "إليان" عزيزتي ! صديقتي العزيزة ! ألا ترغبين في مواجهتنا؟

– المعذرة يا سيدتي . غاية ما في الأمر أردت أن أبدل ملابسي التي يعلوها غبار الغابة

– تاتاتا كم أنك لا تجيدين الكذب . اتركي هذه الشمسية وساعديني على حمل هذه الصواني إلى أصدقائنا ، لأن "أرماند" قد يخيب ظنه عندما لا تحضرين انتصاره!

– هل السادة قد حضروا لتهنئته على تغيير رأيه ؟

لم تنتبه "إليان" إلى أن أسلوب سؤالها يمس عمها أكثر من "الماركيزة" المزعجة التي تتوجه إليها بالكلام إلا بعد فترة طويلة .

في الحال ، عملت على الالتفات إلى أسلوبها :

– أعتقد أنك أنت التي قمت بدعوة كل رجال صناعة السيارات هنا؟ ألم يصلوا بعد الأخوة "ميشلان" ؟

أجابت الماركيزة بلهجة عجيبة ، متغاضية عما تقصده الفتاة :

– لا . لكن لن يدهشني إذا رأيت أن السادة "دي ديون" أو "بيجو" قد حضروا لكي يقدموا خدماتهم لـ "أرماند" .

في هذه الأثناء كانت ابنة أخي سكرتير الدولة منهمكة في إخراج الدبوس الطويل الذي يمسك قبعتها ، فمكثت باسطة ذراعيها أعلى رأسها في رشاقة .

ثم استفسرت دهشة :

– أي خدمات .

– هيا بنا نقدم الشاي يا عزيزتي .

هكذا أجادت "الماركيزة" التخلص من السؤال . وحملت "إليان"

صينية محملة بالجاتوه ، وتبعت مدام "دي سان ليجيه" إلى الصالون .

عند وصولهما ، نهض الرجلان . قامت الماركيزة بتقديم صديقها "هيبوليت بانهارد" الذي حيا الفتاة، وقد بدا شارداً . كان يبدو أكبر سنا من "زافييه" . كما أن "إليان" دهشت أكثر لـ "لويس رينو" . وهي تعلم أنه لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، غير أن ما يبديه من خجل أو حياء في تصرفاته كانت تجعله أكثر شباباً .

أخذت الماركيزة "دي سان ليجيه" تستقبل الزوار وكأنها في منزلها . وفجأة تواجدت "إليان" في صف إحدى بنات الأسر الطيبة ، صامتة وغير متحركة ، ساكنة . قدم الشاي ووزعت الفطائر ودار الحديث ، دون أن تشترك فيه .

أردفت الماركيزة :

– سوف يتأثر "أرماند" لتصرفك ، لكن أخشى ألا يتمكن لا الواحد ولا الآخر من إرضائك .

أجاب "هيبوليت بانهارد" ضاحكا :

– لن نتبارز للحصول على هذا الشرف .

ضحك "رينو" في لطف :

– كان سيخشى من ذلك إذا انضم لنا "البرت دي ديجون"

– لقد كانت لي فرصة الإعجاب به في الـ "جراند جات" وفي برج "لاتور دي فيلبون" . قد أعتبره خصما خطيراً سواء بالسيف أو بالمسدس .

– هل تعرفين الماركيزة "دي ديون" يا آنسة ؟

هكذا سألها "لويس رينو" لكي يشركها في الحديث من باب اللياقة .

أجابت "إليان" في بشاشة :

– لم أحصل على هذه المسرة مادام أنه لم يسبق لي حضور مبارزة

استطرد "بانهارد" :

– فيما يخص هدف زيارتنا ، لقد قررنا أن أول من ستكون له الكلمة

هو "لويس" . كما أني تشرفت بصحبتك يا مدام .

وكان يكاد يلتهم "الماركيزة" بعينيه. بادلته الابتسامة وهي تحرك أهدابها بمهارة . حينئذ تساءلت "إليان" إذا كانت هذه هي الحركة التي تقوم بها "الماركيزة" هي التي جذبت عمها. لم يكن غير محتمل : لأن ميوله كانت مختلفة عن ميول أخيه في كل الأمور ، إذ إن والد "إليان" يفضل ويقدر البساطة والكتمان و"أرماند" كان ينجذب للسيدة الاجتماعية ، الشاذة

وإذا بأصوات تصدر من المدخل تخرجها من تأملاتها .

كانت الخيول تعمل مرحة لأنها حلت من العربات . قفزت مدام "دي سان ليجيه" :

– ها هو "أرماند" !

دخل سكرتير الدولة مع "زافييه" . فشحبت "إليان" . كانت تتمنى أن تهرب لكنها لا تستطيع ذلك. كان الجميع – من حولها – يحيون بعضهم البعض في مرح. إن الرجال الأربعة يعرفون بعضهم البعض لأنهم تقابلوا في ظروف لم يتعرضوا لها ، بينما عضو مجلس الشيوخ "مونفور" كان لا يزال عدوا لمغامرات السيارات التي يتاهب للإشادة بها في اليوم التالي.

وبعد التهاني اللازمة ، تناول "لويس رينو" الموضوع :

– أعتقد أني حصلت على شرف أن أكون أول من عرض عليك هذا المشروع ها هو مؤتمر "مانت" قد أصبح حدثاً قومياً .

وبما أنها رئيسة ، هل تقبل أن تتوجه إليه في السيارة ؟

انطلق "مونفور" في الضحك:

– وهل ترغب في مرافقتي إلى هناك ، في سيارتك الـ "رينو" . هذا أمر طبيعي ، وبالتالي سيكون السيد "بانهارد" في سيارته "بانهارد– ليفاسور" ؟ والآن، أيها السادة .. إني سعيد لاتفاقكم معاً! وهانا أرفض.

اعترضت "الماركيزة" :

– لا تكن حازماً إلى هذا الحد ، أيها العزيز "أرماند" ! لقد حصر كل من السيد "هيوليت" والسيد "رينو" وليست لهما روح المنافسة. وكان مدبراً أني سأتبعك في السيارة "بانهارد" لا تقاوم السيد "رينو"

– مستحيل ! لقد وعدت السيد "ديبون" بأني سأسافر في سيارته.

تدخل "زافييه" :

– أشكرك على إخلاصك ، غير أني أرى بصدق أن أتراجع أمام شهرة صديقي "لويس" لقد أتم ماكينة أي سيارة فاخرة تستحق حقا أن تفتتحها!

فما كان من "لويس رينو" إلا أن ثبت النظر طرف حذائه .

أردف "مونفور" في ضيق:

– طالما تثنيني عن كلمتي يجب أن أعترف بانه يسعدني أن أتشرف بإحدى ماركات السيارات الفرنسية هل يسيء إليك سيدي الدوق ، إذا ما عهدت لك بابنة أخي؟

ولما كانت "إليان" حتى الآن في ضيق لما كانوا يقدمون من آيات الاحترام والتبجيل الواحد للآخر.

وجدت الفرصة لكي تضع يدها إلى جبينها.

– المعذرة يا عمي ، لا أعتقد أني سوف أتمكن من الذهاب معكم إلى "مانت" ، لأني أعاني صداعاً نصفياً فظيعاً

قالت لها مدام "دي سان ليجيه" مؤكدة :

اطلبي من "سيلستين" أن تعد لك مشروباً دافئاً . سوف يفيدك.

حينئذ بدت على شفتي "زافييه" ابتسامة غير معبرة :

– إذا سمحت لي يا آنسة ، الهواء الطلق هو الذي سوف يفيدك يسرني أن أضع سيارتي تحت تصرفك.

أضاف "أرماند" :

– على أي حال لن أتركك بمفردك في "باريس" طوال يوم كامل.

هاهي "إليان" قد هزمت. لقد سمحت لها الآلام المزعومة بالبقاء

بمفردها في حجرتها حيث أتت لها "سيلستين" بالمشروب الساخن.

ثم نامت لكي تنسى هذه التجربة : ساعات طويلة على انفراد مع الدوق "ديبون".

بدأ الرحيل . "لويس رينو" و"زافييه ديبون" وصلا في الساعة الثامنة تماماً ، بينما "أرماند" كان يتناقش مع "سيلستين" التي كانت متمسكة أن يحمل معه مفرشاً أبيض، سلالامختلفة بها لحم بارد وبعض أنواع من الجبن وفواكه وفطائر أعدتها منذ الفجر.

إن منظر هذه المشادة بينهما عمل على تسلية "إليان" وعدا ما لحق بها من ضيق إزاء فكرة تواجدها لفترة طويلة بمفردها مع الدوق ، اندمجت في هذا المناخ الشبيه بالعيد الذي يسود بالمطابخ.

انفرجت أساريرها عندما رأت أن "نيستور" ضمن الرحلة . انضم هذا الأخير لرأى "سيلستين" بما له من روح السماحة ، مطمئنا إياها أن هذه الماكولات سوف توضع في حقيبة السيارة الخلفية ، وهو يمني نفسه بأنه سيستفيد منها أثناء الاستراحة.

وأخيراً ، اتخذ كل منهم مكانه . وبعد قليل انطلقت السيارتان . كانت "إليان" قد تخلصت جزئياً من عصبيتها . لقد قدم لها "زافييه" بعض كلمات المجاملة ، ثم لم يهتم بعد ذلك بسيارته . كان قد أخفى عينيه خلف زجاج النظارة ووضع شعره تحت كاسكيت يغطي دائرها أذنيه . أما الفتاة فكانت قد عقدت الوشاح حول عنقها حدثت نفسها بأنه- مع صوت الموتور- سوف يستحيل الحديث، فابتهجت لذلك.

وكانت الماركيزة "دي سان ليجيه" وكذلك السيد "بانهارد" دقيقين في المواعيد وكان قد تقرر أن من سوف يتقدمان الموكب هما "لويس رينو" وسكرتير الدولة ؛ وبذلك يكون في الإمكان الإسراع إلى معونتهما في حالة حدوث أي عطل ميكانيكي : ليس معنى ذلك أن يصل رئيس المؤتمر متاخرا إلى "مانت" . وإذا حصل بغتة فشل للسيارتين الأخريين، لن يكون أكثر ضرراً. وفي حالة ابتعادهما الواحد عن الآخر ،

حدد الموعد نحو الساعة العاشرة في قرية "فلين سيرسين" الصغيرة التي قد تكون لهما بمثابة استراحة .

كان قد سبق لـ "إليان" أن وجدت الفرصة لركوب سيارة بلا خيول مع والدها ، لكن لمسافة ليست بهذا الطول. وعلى الرغم من ذلك كانت مسرورة لهذا الحدث الجديد. كانت تقاوم ذاتها لكي تنسى أنه كان من الممكن أن يكون السفر أكثر متعة : قلب "زافييه" ليس خالياً، وأصبح الحلم غير مباح . وكان كلما صمت الدوق ، كانت تشعر بأنها كفيلة بالسيطرة على مشاعرها والتظاهر بتجاهل وجوده.

وكان "نيستور" أول من قطع هذا الصمت ، عندما رأى البقرات تهرب في المراعي عندما اقتربوا منها. قال:

– يا للعجب! كأنهما أكثر غباء من الأوز!

وفي الواقع ، إن الأوز يسير على جانب الطريق متعال، رابط الجاش .

– أرى في عدم مبالاتها خزيا تاما. إني أفضل الكلاب التي تتبعنا وهي تنبح أو الخيول التي تفزع . هكذا أردف الدوق "ديبون".

ومن خلال نظارته ، ركز على "إليان" نظرة معبرة ، وكان هذه الجملة تخصها شخصياً.

على الرغم من ارتباكها ، فضلت ألا تجيب.

ألح "زافييه":

– أرجو ألا أكون قد جرحت إحساسك ، أنا لا أبغي مقارنتك بأوزة

وكان يتحدث بصوت عال، فكان من المستحيل تمييز نبرة صوته، وكانت أعصابها قد تأثرت ،وشعرت بتعد ظالم:

– لا أرى فيم أستحق هذا التشبيه؟!

– من أجل لا مبالاتك ! إنك لم تنطقي بكلمة واحدة منذ مغادرتنا "باريس".

– لأننا مضطرون للصياح ، وأنا أمقت ذلك!

– إذن، ما علينا إلا أن نتحدث بطريقة طبيعية!

قال "زافييه" ذلك، وضغط على الفرامل ، ودفع بالمقبض الذي قطع الاتصال بالموتور .

اعترضت "إليان" :

– ما الذي تفعله ؟ سيعرضنا ذلك للتأخير .

قفز "نيستور" في الحال إلى الأرض.

قال:

– السيد الدوق يعلم ما يفعل. بالسيارة عطل!!

– هل كنت تعتقدين أني توقفت لمجرد متعة الثرثرة ؟

– هكذا همس "زافييه" في أذن "إليان" قبل أن يقفز هو أيضاً من العربة.

رفع نظارته وغطاء رأسه ووضعهما على المقعد . الآن تمكنت "إليان" من مشاهدة وجهه. كان لا يزال أثر النظارة يحيط بعينه ، وطرف شاربه ارتفع في تحد ساخر.

قالت مستهزئة:

– لم أتوقع أن الموتور المعد لـ "باريس– دوفيل" يلحقه العطل بعد أن قطعت السيارة مسافة عشرة كيلو مترات!

– كما أننا لا نطالبك بتوقع أكثر من ذلك . دعي إذن رأسك يستريح، هذا الرأس الجميل الفارغ!

كانت ثائرة لمثل هذه المعاملة القاسية ، لكنها كانت تعمل على تجنب أي مشاجرة قد تعمل على إبعادها عن "زافييه" بل على خلق صلة صداقة قوية بينهما. نزلت في صمت من على مقعدها وفردت جونلتها.

– ارفعي وشاحك، لأنك سوف تختنقين.

أطاعت في الحال ، لأنها شعرت بأنها– بدون هواء– سجينة قناع دافئ غير محتمل . وبعد أن تخلصت من هذا الغطاء الثقيل ، أصلحت الشينيون بيد مرنة، ووضعت قبعتها متخذة مظهراً طبيعياً جداً:

– هل ستطول فترة الإصلاح ؟

– يلزمنا عشر دقائق لكي يبرد الموتور.

هكذا أكد "نيستور" .

وكان الصبي قد فتح الغطاء، ووضع بعض المعدات على قماشة نظيفة.

ضحك "زافييه" :

– ليتك تستطيع القيام بالسفر جالساً في الموتور هيه؟

– صدقني يا سيدي الدوق ، سأكون فيه أسعد من على الأريكة!

وقفت "إليان" تحرك قدميها. تقطب عينيها تحت الضوء الشديد المتوهج على الرغم من الشمسية التي كانت تحركها . تفرس "زافييه" فيها لحظة ، ثم أشار لها إلى مرعى من العشب المرتفع حيث تنتشر زهور النباتات العشبية ، وهي جميلة ومتعددة الألوان .

– ألا يمنحك هذا المنظر الرغبة في عمل باقة؟

– وهل لدي الوقت؟

وقبل أن تنتظر الرد ، كانت قد اندفعت نحو العشب الرطب.

تألمت الفتاة كثيراً من هذه الطعنات المتواصلة التي كان يوجهها إليها الدوق "ديبون" . "آه لو يعلم كم أني أحبه؛ ما جعلني أتألم هكذا" هكذا تمتمت "إليان" . سارت بعض الوقت وهي ترفع أسفل جونلتها التي كانت تعرقل خطاها، ثم جلست. وبعيداً عن الأنظار ، استسلمت لبكاء. كانت الدموع تسيل على رموشها، غير انها كانت تحاول – في نفس الوقت– أن تفكر حتى لا تتشتت أفكارها.

ومادام أن هذا التشويش المؤلم قد تسبب لها فيه عمها،

كان عليها أن تستفيد من هذه الفترة لكي تحل مع "زافييه" لغز الرسم العجيب ، الغامض . لابد أن يكون "نيستور" قد أراه له، وهو الآن قد علم بما يقصده هذا الرسم . إذا كان المغرضون قد عملوا فقط على نقل موديل الموتور الذي اخترعه الدوق ففي هذه الحالة يستطيع هذا الأخير

رفض استعادة الورقة " وفي هذه الحالة تتعرض حياته للخطر" هكذا حدثت نفسها وهي تقشعر وإذا كان لا علاقة لها بالاختراع ، فلماذا يبعثون بمثل هذه التهديدات ؟

– هل تبكين يا صغيرة ؟

وكان صوت "زافييه" مرتبكاً. لم تشعر "إليان" بوصوله و– عندما تحققت من وجوده– كان قد جلس بجوارها وأمسك بيدها بين يديه.

اقتربت منه بحاستها لا إرادياً:

– بالتأكيد لا. إن الشمس تؤلم عينيو

– "إليان" ، لم أقصد أبداً أن أجرح مشاعرك ، أحلف لك كل ما يدفعني إلى ذلك هو رغبتك في الابتعاد عني

تظاهرت بالغضب لأنه كان من واجبها أن تبعده ، حتى لو كان مقابل آلام فظيعة :

– إنك حقا ادعائي يا سيدي. إن نقدك لم يسئ إلي ولا أطالبك بالتفسير.

– حسناً جداً. بما أن هذا هو رأيك فانهضي، في إمكاننا أن نواصل رحلتنا.

لم يمد لها يده لمساعدتها على الوقوف ، ولحق سيارته بخطى سريعة إلى حد أن الفتاة عجزت عن اتباعه.

وعندما وصلوا إلى "فلين" ، ساد بينهما الصمت ، لكن اضطرا إلى الظهور بمظهر الارتياح أمام المسافرين الأربعة الذين كانوا في انتظارهما في ميدان "أورم".

عمل "نيستور" على شرح الموقف – الذي كانوا ضحيته– بالاصطلاحات الفنية إلى السادة "بانهارد" و"رينو" ، دون أن يعيرا اهتماماً لإعجاب المزارعين الذين يحكون رؤوسهم إذ كانوا قد تجمعوا في المكان ، توسلت لهم الماركيزة:

– أسرعوا . إن أولئك الناس يبدون مودة ولن نتمكن من مواصلة

مسيرتنا

وإذا بالسيد "أرماند" في حماسة يقبل ابنة أخيه كأنه لم يرها منذ خمس سنوات . وبعد أن انتهت تحيات اللقاء، تزودوا بالماء، وانصرفوا مع صيحات الصبية وهم عراة إلى النصف ، يرددون كلمة الوداع ، الذين لم يكفوا عن الدوران حول السيارات ما بين الإعجاب والدهشة توقفوا على مسافة بعيدة بعض الشيء. وفي ظل الغابة التي تحد القرية ، بينما وضعت السلال على المفرش الأبيض قام "زافييه" و"نيستور" بوضع أقمشة مبللة على محرك السيارة لكي يبرد تماماً.

وكانت الوحيدة التي لم تتناول طعاماً بشهية هي "إليان" ؛ وكانت – بدلاً من ذلك – تندمج في الحديث المرح على قدر استطاعتها.

وعندما اضطروا إلى مواصلة الرحلة إلى "مانت" ، وقد أبهجه هذا الركن الريفي– ربما يرجع ذلك إلى سحر زجاجات "سيلستين". ندم على عدم إمكانيته بتحويل ورشته التي في "بيلانكور" إلى هنا

أما بالنسبة لـ "زافييه" الذي ترك السيارتين الأخريين تتخطياه فقد ندم على بقائه في "فلين" أكثر مما كان متوقعا : وعند تحريك الآلة ، سمع صوت الموتور على نحو عادي. وبعد قليل سمع صوتا قوياً يدوي.

قفز "نيستور" في الحال من على مقعده وهو يصيح:

– أوقف الموتور!

بسرعة حركت "إليان" المقبض ، كما سبق ورأت "زافييه" يقوم بذلك.

– سيدي الدوق ! سيدي الدوق ! الأقمشة على محرك الموتور! آه إنها غلطتي!

وأخذ الشاب يشد شعره.

اتسعت حدقتا عيني "زافييه" لكنه– أمام إعجاب "إليان" كان محتفظا برباطة جأشه:

– قل بصراحة يا صديقي هل أنا مخطئ لأني مشترك معك في الخطأ أم لا؟ كف عن الأنين وهيا بنا نرى حجم التلف حسبما اعتقدت أنها فهمت ، أيقنت "إليان" أن الأقمشة عملت على كسر حامل إحدى المخدات باختصار ، إنها لم تفهم الكثير ، لكنها رأت "زافييه" – وكان يبدو هادئاً – وهو يشرح لـ "نيستور" كيف من الممكن وصل الجزء المكسور بخيط حديدي. أي بسلك

قال له :

– طالما تقول إنك وحدك مسؤول عما حدث ، عليك إذن القيام بالإصلاح بمفردك!

– حقاً ؟ إنك رائع يا سيدي الدوق!

وكان لمثل هذه الثقة أثر طيب على نفسية الشاب.

وبعد أن ربت على كتف "نيستور" ، عاد "زافييه" إلى الراكبة التي لم تترك مكانها ودعاها إلى النزول :

– أهنئك على حسن انتباهك تعالي هنا في الظل. يبدو أن لدينا ما نتحدث فيه.

تبعته وإن كانت تبدو دائماً قلقة.

بادرته بقولها:

– هل رأيت الرسم ؟ لقد تلقيت تهديدات مرة أخرى صباح أمس فوجئت الفتاة بأنه يضمها إليه ويقبلها . رغبت في التصدي لما يبديه لها خطيب "إيما" من حنان . ابتعد "زافييه" عنها. ولما أراد تقبيلها مرة أخرى ، قالت لاهثة :

– كـ كفي

اقترب منها ثانية ، وضع يديه في شعرها .ارتبكت "إليان" . تذكرت في مرارة يوم الافتتاح وفي غمرة سعادتها سالت دموعها.

ثم قارب "زافييه" رأس الفتاة منه قائلاً:

– أليس ما لدينا من قول هو أنك تحبينني ؟

– أرجوك .. لا تتسبب لي في الألم.

– أتحبينني؟

– إنك خطيب "إيما فون جليكر" .

– إذا كان هذا هو العائق بالنسبة لك ، فإذن حبك لي ليس قوياً.

– أنا لا أستطيع جعل هذه الصغيرة تتألم .

– إذن أنت تحبينني حقاً؟

قالت في أنين وهي تتخلص من قبضة ذراعيه لها:

– لا تكن عنيفاً ، أنا لا أستطيع إفساد حياتي وحياة من ستكون زوجتك من أجلك . أعتقد أن كلامي واضح؟

– واضح جداً.

هكذا أجاب الدوق مبتسماً.

ثم غير نبرة صوته وقال:

– إذن أرجو ألا تهتمي بعد الآن بشؤوني وخاصة بهذا الرسم الذي أرسلته عن طريق "نيستور" .

كيف يلومها بأنها مهتمة بهذه الورقة التي لا يعرف هو ذاته شيئاً عنها؟

قالت:

– لا بل "أنا" التي ترجوك بألا تهتم بشؤوني ، وأن تعيد لي هذا الرسم لأنه مطلوب مني إعادته إلى مكتبة "ديليسال" !

– آه. لقد أخبرك أولئك اللصوص بعنوانهم؟

امتنعت عن الإشارة إلى الورقة التي سلمتها لها "سيلستين" ،وأجابت في لهجة تحد:

– سوف أتوجه إلى هناك غداً ومعي الرسم.

– لن تذهبي ، لأنك لن تحصلي على الرسم.

– بالرسم أو بدونه، سوف أتوجه . أؤكد لك ذلك!

من فرط تأثرها لتصرفات "زافييه" المتقلبة ، غفلت عن أن الرسم هو الأساسي : ربما أن هذه الورقة هي نسخة من اختراعه ، ومن حقه الاحتفاظ بها لنفسه .هدأت وأردفت بنبرة وديعة لكن واثقة:

– هل توصلت إلى معرفة ما بالورقة؟

– حتى الآن لا. لقد أرسلتها إلى صديقي "سانتوس ديمون" لأنه أكثرخبرة مني في شؤون الكهرباء.

هلعت:

– لكن لا ينبغي أن تنتقل هكذا هذه الورقة من يد إلى يد ! يجب أن أعيدها ، ألا تفهم حتى الآن؟ إن حياتك في خطر وربما حياتي أنا أيضاً.

قاطعها آمراً:

– لن تعيدي شيئاً.

– حسناً جداً ، سأتوجه إلى المكتبة خالية اليدين وليحدث ما يحدث!

أدارت له ظهرها وعادت جرياً إلى السيارة . وعندما أقبل إليها "ديبون" ، اقتربامن الطريق حيث لم يكن "نيستور" بمفرده.

لا شك في أن أحد الصبية رأى السيارة راكنة ، وبذلك سرى الخبر في كل القرية. الجميع تواجدوا : بالقرب منها سيدات تقدمن المشابك التي تثبت شينيون شعورهن . والفلاح يسأل إذا كان منجله يفيد بشيء ما ، أما المراهقون فكان كل اهتمامهم هو الحصول على معلومة تفيدهم عن كيفية استخدام هذه العربة

– تعال وانظر سيدي الدوق ، يبدو أني نجحت في مهمتي. أفسح الفلاحون الطريق في إجلال للسيد "زافييه" الذي هنأ "نيستور" ، وانصرفوا وسط الصيحات الجماعية : " برافو! مع السلامة "

قدم "زافييه" إلى الشاب ابتسامة إعجاب ، غير أن "إليان" لمحت– من خلف نظارته – أنه عصبي ومتوتر .

الفصل العاشر

اختلطت دقات الساعة القوية باللحن الرقيق الصادر من قيثارة

"إليان" . عدتها هذه الأخيرة فوجدتها السادسة عشرة. لم تكن قد رأت عمها طوال النهار . لقد لاقى مؤتمر الليلة الماضية نجاحاً ساحقاً . من خلاله تعهد كل من العمدة ومجلس محلي المدينة وكل الشعب – متأثرين بخطاب سكرتير الدولة – باستقبال المتنافسين في مسابقة "باريس دوفيل" بحماس . وكان لـ "أرماند مونفور" الحق في استقبال حار.

وعندما اتخذ الرئيس وبرفقته الرائدان الشهيران "رينو" و"بانهارد" الطريق للعودة إلى العاصمة ، كان السكان الذين ينتظرونهم على قارعة الطريق ، يلقون أمامهم بالزهور وأغصان تفيض بثمار الكمثرى والبرقوق والقراصيا.

غير أن "زافييه" لم يحضر هذه الاحتفالات، لأنه أخر عودته حتى يتأكد من إصلاح سيارته.

أصبحت أنامل الفتاة في حالة عصبية . قامت بعزف بعض الألحان ، ثم تنهدت وهي تعض على شفتها .

سوف تصل إلى مكتبه "ديليسال" خلال ساعتين . هل ستقابل هناك الشخص الذي يتعقبها ؟ لقد اختفى من ذلك اليوم الذي سلم فيه الورقة إلى "سيلستين" ، لكنها كانت مقتنعة بأنه لن يتخلى عن مطاردتها . رؤية الجري خلف هذا المجهول أثلجتها . كانت التهديدات الخاصة بالدوق "ديبون" تشغل فكرها بالتأكيد ، لكن كلما مر الوقت ، كلما قلت قدرتها على التنفيذ.

وسوف تواجه بعد ساعتين أسوأ المضايقات ، ليس لأمر ما، لأجل زهو أو غرور ، بل من أجل عنادها.

عندما أعلنت "زافييه" بزيارتها للمسيئين، لم تفكر أولاً إلا في إعادة الرسم لكي يكون في حيازتها عندما يطلب منها.

وهاهي الآن لا تستطيع التراجع ، وكانت خائفة!

– إنك لا تفكرين فيما تقومين به . إن هذه القطعة رقيقة جداً بل إنها الخفة ذاتها ، وأنت تعملين على سحقها بأقدام المشاه! ولما كانت

"سيلستين" تتمتع بحاسة سمع قوية، تركت الأفران . جلست في الصالون ومعها سلة الخياطة ، دون أن تكف عن التمتمة :

– اعزفي لي إذن المارش التركي لـ "موتسارت" على البيان، لأن لي إحساساً بأن ذلك سوف يعيدك إلى حالتك الأولى.

تركت الفتاة– نادمة – آلتها المفضلة ، وجلست أمام أصابع البيان.

– هذا من أجل إرضائك !إنك تعلمين أني لا أميل كثيراً إلى العزف على البيان : إن يدي صغيرتين جداً . سأعزف لك المارش وليس سواه ؛ لأني بعد ذلك يجب أن أستعد للخروج .

– وإلى أين تذهبين ؟ لقد طالبك السيد "أرماند" بعدم مغادرة المنزل.

– هل غفلت عن أن "مانون ريفي" معتمدة على مساعدتي لها لإعداد حفلها الخيري؟

لم تكن سوى نصف كذبة . قد تحتاج "مانون" لـ "إليان" ذات يوم ، نعم ، لكن خلال أكثر من أسبوع

أردفت المديرة المسنة دهشة لأنها على علم بالاجتماعيات الباريسية :

– أهكذا مبكراً؟

– لابد لهذه الاحتفالات – قبل تحديد موعدها – من استعدادات مثل إرسال بطاقات الدعوة استلام العطايا والتبرعات كل هذا يحتاج إلى وقت!

خجلت الفتاة لهذه الأكاذيب . كتمت كلماتها الأخيرة وهي تعزف لـ "موتسارت" بأناملها الضعيفة.

وبعد ذلك طلبت الآنسة "مونفور" – بعد وصولها إلى الـ "كونكورد" – عربة . ولم تجرؤ على عبور الحي اللاتيني. على الرغم من أن الطلاب في إجازة ، كانت الشوارع المحيطة بجامعة "السوربون" تزخر بالمارة وبالحركة الدائبة. كانت تعرف "باريس" جزئياً وهذا عن طريق عملها، مدنية في مدينة متوترة بسبب التيارات

السياسية المختلفة.

وعندما غادرت العربة حي "سان جيرمان" لكي تدخل إلى الـ "أوديون" في شارع "ميسيه ليبرانس" (السيد الأمير) ، شعرت "إليان" بنشاط يدب على الأرض . سيدات يحكن الملابس وهن يثرثرن على عتبة باب المنزل وشبان يتناقشون في حمية مستخدمين الأيدي للتعبير. لاحظت كذلك أن عدد الفتيات قليل وعلى أي حال لم تكن ولا واحدة في ملابس تشابه ملابسها ، بل كن يرتدين قمصاناً فضفاضة واسعة أو قمصانا بسيطة على طريقة الفتاة المتشردة التي كانت قد هاجمتها ولم ترها منذ ذلك الحين. ضعفت شجاعتها . لقد راودتها فكرة احتمال مقابلتها في مكتبة "ديليسال" وشعرت بالضيق . لكن لقد فات الأوان على إدانة ذاتها على عنادها الذي أتى بها إلى هذا المكان.

بعد قليل صاح الحوذي :

– هانت وصلت يا آنستي الصغيرة .

نزلت ابنة أخي النائب . راقبت البوتيك لحظة . وكان خلف الزجاج القذر كم من الكتب والصحف مختلطة ببعضها في غير ترتيب .

وعندما اقتربت تفحصت الداخل . وكان يبدو أنه خال من الناس.

وكان خشب الأرفف والأقسام غير مطلي ، وليس سوى الوسخ يغطيها .

ورائحة الغبار والتبغ وحبر الطباعة تتسرب إلى الشارع . قررت "إليان" الاستناد إلى سقاطة الباب المغلق . رغبت في الانصراف.

– لابد أن يكون صاحب المكتبة في الداخل ، مري من مدخل العمارة!

إنه بواب العمارة ذو العينين الرقيبتين الذي كلمها مشيراً لها إلى فتحة تطل على ممر مظلم .

لم تجرؤ على التراجع . اتجهت – وهي تتحسس – بين الجدران الرطبة. وكان هذا الدهليز ممتداً حتى إلى السلم القديم المهتز . بعد قليل سمعت أصواتا دفعت بها إلى باب منخفض . جف حلقها من رائحة الشحم ودخان الغليون . خفق قلبها وكتمت نفسها ولم تجرؤ على القرع على الباب.

– لقد سمح "ميليران" باجتماع مؤتمر اجتماعي!

– نعم ! يجب أن نقاوم حتى نحصل على مؤتمرنا نحن أيضاً!

– مادام أن "والديك روسو" يمنعنا ، لا أهمية لـ "والديك روسو"

– سوف نحصل عليه بالقوة ! علينا بمضاعفة محاولات الاعتداء!

شعرت "إليان" بازدياد في ضغط الدم. إنها الآن تحضر اجتماعاً مضاداً للحكم . فهمت في الحال . وكان عمها سبق وحدثها عن مطالب مخزية لمؤتمر كانت الحكومة قد رفضته.

تسمرت في مكانها، لا تفكر إلا في تجميع ذهنها وعضلاتها لكي تهرب عندما تجد القوة.

– لماذا فشلت محاولة اغتيال شارع "مالاكوف" لشاه "إيران"؟

– كان الوقت لا يزال مبكراً ! الثاني من شهر آب (أغسطس) لم نكن أعددنا قنبلتنا بعد!

– والآن هل أعدت؟

لم ينتظر "رافاشول ديبون" لكي تنجح محاولات اغتيالاته !

شعرت "إليان" بطنين في الأذنين . هل سمعت جيداً ؟ يبدو أن اسم الدوق مالوف خلف هذا الباب هل "زافييه" مشترك في هذا العنف؟.

والآن ها هم يتحدثون جماعة ، والفتاة لا تدرك معنى كلماتهم تزاحمت أفكارها . لو كان "زافييه" معهم قلبياً ، فكيف يفكر في أن يتزوج من ابنة "أرشيدوق بـ"النمسا" ؟ كانت الإمبراطورة "سيسي" قد اغتيلت قبل ذلك بعامين عن طريق أولئك الأفراد من هم ضد الحكم . لماذا كان كل هذا الحقد لإنشاء مجتمع مسالم؟

– لأن هدف أولئك الرجال ذوي الأصوات الأجشة ، مجتمع أفضل لا يملك فيه أحد شيئاً طالما يمتلك الجميع كل شيء.

– لقد ضم المعرض العالمي بين جدراننا كل المنتمين للملكية وجميع الطغاة الجبابرة! وهل سندعهم يعيشون ؟

هكذا صاح أحدهم.

– أنا موافق تماماً! إن الاغتيال المتفق عليه غداً لابد أن يتم.

– ليمت الغجري وممثله الـ "يوكوسوف" !

– لن تكون إلا المرحلة الأولى!

حينئذ حلت الثورة مكان الخوف عند "إليان" . يا لهم من مجانين!

رغبت لو أنها تمكنت من الدخول إليهم لكي تصيح بأعلى صوتها: "وهل تعتقدون أن بعد موت الأمير سوف يوزع الروبل الروسي على الفلاحين الروس؟ وهل استفاد العمال النمساويون من سيفكم؟ وهل شعب "إيران" سوف يثري بعد وفاة الشاه إن لم يكن نصيبكم الفشل؟

لكن – وقد رغبت في الحصول عليالمزيد من المعلومات حتى تتمكن من التصرف – وضعت أذنها على فتحة من الخشب العفن.

– والآن ليتنا نضع ملخصاً للموقف! لقد سمح لنا اختراع الدوق "ديبون" بوضع قنبلة ضرورية

– بالضبط يا صديقي! القنبلة اليوم ١٢ آب (أغسطس) . هل هي معدة ؟

– هناك حدث يمنعنا حالياً أن نحصل على الرسم . لكن لن نتمكن من تأجيل مدة إعادته!

– إنها عرقلة عمل، ليس لدينا الوقت لكي نجري وراء قصاصة ورق!

– نعم ! سوف يقتل "يوكوسوف" غداً كما هو متفق عليه

– لم تجد الوقت لكي تتصرف ، لأن أحدهم من خلفها أمسك

بذراعيها كما في منجلة شديدة.

– وبعد يا آنسة . هل نتجسس؟

شعرت بنفس الرجل بالقرب من عنقها.

– من أنت ؟

هكذا سألت وهي تلهث محاولة رؤية الرجل من أعلى كتفها.

– ستعرفين فيما بعد . ادخلي.

وأشار الشخص المجهول إلى مقبض الباب. استفادت من ذلك مثل قط مرن لكي تواجهه.

– لا أريد أن أدخل ! لأني كنت أبحث عنك !

وكانت هذه هي المرة الأولى التي رأته فيها عن قرب . لقد راقبها بدقة تحت نافذتها، تعقبها حتى إلى الأوبرا ، لكنها لم تر قط وجهه عن قرب. هذا الوجه ذو النظرة الصلبة المدفونة في السحنة المنقبضة العظمية.

وكان شعره الأشقر الذي يكاد أن يبدو أبيض في ما بين الضوء والظل، يمنحه منظر الشبح!

كررت :

– كنت أبحث عنك لأني أرغب في إعادة الرسم إليك.

– وهو معك الآن؟

– آه لا أي إني لم أكن واثقة من العثور عليك.

لم يدعها توضح موقفها أكثر من ذلك . بل سبق وفتح الباب ودفع بالفتاة أمامه.

اختنقت "إليان" من الدخان ، وأعمتها الأضواء المهتزة الصادرة عن المصابيح المضاءة بالزيت . قطبت عينيها وكتمت نفسها . رويداً رويداً، اكتشفت كل الرؤوس التي التفتت نحوها حائرة دهشة . كان أغلبهم شباناً ، ودهشت لأن الصفاء كان بادياً على ملامحهم . ولما مرت لحظة الدهشة ، سمعت الشخص الذي يلاحقها يعلن في افتخار:

– هأنا أصطحب لكم الآنسة "مونفور" . وجدتها تتجسس خلف الباب.

– إنها شجاعة كافية .

قال أحدهم.

– في الانتظار ، يجب أن نحتجزها !

اقترح الآخر.

– إذا مكثت هنا ، فكيف تستطيعون إعادة رسم القنبلة التي تعتزمون إعدادها ؟

هكذا صاحت الفتاة.

وإذا بالشخص الضخم ذي الشعر الأحمر الذي كان لا يكف عن أكل الفول السوداني يقول:

– بالذهاب لإحضاره ، ليس إلا! أين هو ؟

عجزت "إليان" عن الرد. كانت لا ترغب في الإساءة إلى "زافييه" . إن الدوق ليس شريكهم في الجريمة كما ظنت .

لقد سرق أولئك المشاغبون عدة مرات الجزء المحرك للموتور لكي يقلدوه ويضعوه في قنبلتهم . وحالياً ، لا شك في أن "زافييه" لا يعلم أنه ضحية رجال سياسيين.

– إذن ، لقد فقدت عودتك يا صديقتي؟

وكان الكلام موجها إليها.

– الرسم عندي.

– أين ؟ سنتوجه لأخذه لأننا نعرف حجرتك !

– كما أنهم اعترفوا أنهم لصوص ليلة الأوبرا . ومع ذلك كانت "إليان" فزعة من نيتهم أكثر من خلاعتهم.

– أحلف لكم إني ساعيده لكم إذا

فتح الباب بشدة إثر ضربة قوية:

– لا داعي! هأنا أحضره لكم!

– "زافييه" !

دفعت بالرجل الواقف خلفها وأسرعت إلى الدوق وحوطت عنقه بذراعيها مثل طفلة يائسة .

تمتمت وهي تهمس في أذنه :

– إنهم يعملون على قتل "يوكوسوف" . إذا تركوك تخرج ، فأسرع وأخطره بذلك

وقفوا جميعهم حائرين أمام هذه الحملة ، لكن الشباب كانوا يعلمون جيداً أنه من المستحيل الاستمرار أكثر من ذلك في الإدلاء بما يضمرون . انصرف الدوق بهدوء وشد على يدي "إليان" لكي يطمئنها تقدم بمفرده نحو وسط الغرفة :

– أنا "زافييه ديبون" . ها هو رسمكم!

وأثناء ما كان يلوح بالورقة ، قال الرجل آكل السوداني لاذعا :

– إنها حيلة . سوف يبلغ عنا.

– كيف تعرف عنواننا؟

أردف "زافييه" مصححاً :

– عناوينكم ! "جوردان" شارع "دي نافاران" ، "لويس باتا" ، شارع "دورسيل" إن عناوينكم لا تفيد بشيء مادمتم في حالة تلبس ! تخبر عن أي شيء ؟ إن الشرطة على علم بكل أماكن لقاءاتكم التي تعتبرونها سرية!

– إذن لماذا أتيت ؟ لكي تنسب الأرستقراطية لقضيتنا؟

– لقد حضرت لكي تحرروا الآنسة : "مونفور" !

– هكذا أردف ثائراً وواصل :

– ثم افعلوا ما شئتم بعد ذلك فهذا لا يخصني ! اقتلوا من تشاءون.

لم تتخيل "إليان" أبداً الدوق في مثل هذه الثورة ، لأنه تحدى المجلس بجرأة جديرة بأبطال "يونسون دي تيراي" .

– وإذا كنت أنت من نرغب في قتله ؟

قال– مازحاً في هدوء – رجل طويل نحيف وعقب سيجارة يتدلى من شفتيه.

– ربما في هذه اللحظة بالتحديد تؤخذون متلبسين ! لأني سأعرف كيف أتخذ الاحتياطات اللازمة .

هكذا أجاب "زافييه" بنفس الابتسامة الساخرة.

شعرت "إليان" بأنها مدفوعة نحو الباب . نظرت خلسة إلى الذي كان يجبرها على التراجع بضربات من كوعه خطوة بخطوة . لم يكن فارعا ، وشفتاه الرفيعتان تظهران ابتسامة ماكرة تبرز عينين متحركتين.

– هيا، اخرجي .

قال بصوت ضعيف.

مسحت الحجرة بنظرها ، وليس من بينهم من يهتم بها. هل هو فخ؟

تمتمت :

– لماذا؟

– لأني مبغض النساء ، عدو المرأة أنا أدعى "بول ليوتو" .

لم تسمع اسمه. سارت بطول الدهليز المظلم بخطى سريعة ومهتزة . كان الضوء خافتاً والشمس تلقي بأشعتها الحمراء على جدران الأبنية . أخذت تجري حتى انقطعت أنفاسها ، تدفع بالطلبة أمامها فكانوا يفسحون لها الطريق، وهم يرددون عبارات هزلية أو ينادونها بأسماء متظاهرين بأنهم يعرفونها.

وفي ميدان "الأوديون" ، لم تجد أي عربة.

وكان الأوتوبيس العام المتجه نحو الـ "سين" في الموقف. لم يسبق لها ركوب الأوتوبيس العام. ترددت ، لكنها لم تقدم على السفر مع أفراد مجهولين لها لا تعرفهم.

واصلت السير على الأقدام بطول أرض شارع "سوافرينو" وقد تغلبت بشجاعة على نفورها : بقايا "لا كور دي كونت" التي حرقت أثناء بلدية "باريس" وبها مزارع كثيفة إلى حد – كما يحكى – أن الحيوانات المتوحشة تأتي إليها. كما يحكى أنهم وجدوا أفعى في "كيه دورسيه"؟

أفعى وألم يكن "بوريس يوكوسوف" بالنسبة لها أخطر من ثعبان؟ ومع ذلك ، كان من واجبها أن تخطره . اقشعرت . إن مواجهة الرجال الذين كانوا ضد الحكم أقل مشقة مما هي عليه الآن.

" في ذلك اليوم الذي ستدخلين فيه- بمحض إرادتك - ستكونين لي" هذه هي الكلمات التي كانت قد سمعتها من هذا الروسي الذي لا يخمد . أرادت أن تطردها من ذهنها لكنها لم تتمكن من ذلك.

كانت غير قادرة على السيطرة على خوفها بقدر كاف. ولم تكن غلطتها أن تكرر لنفسها أن الأمير ليس وحشاً- إنه كائن بشري- ربما أنه واضح ، يظهر ما بداخله أكثر من سائر الناس، ومن بالتأكيد سوف ينال جزاء سوء تصرفه.

وأخيراً وجدت عربة ، وهي لا تدري أين . وكأنها كانت نائمة أثناء سيرها. وها هي العربة تنزلها أمام باب معرض "تروكاديرو" العالمي . وكانت في مواجهتها قبة قصر الغجري تتلألأ بالأنوار العديدة.

دخلت "إليان" إلى مملكة ألف ليلة وليلة دون أن تشعر بالإعجاب . إذ كان كل ما بالقصر لا يجذبها ، بل يبدو لها جامداً بارداً .

وإذا بأحد الخدم الفلاحين يأتي وينحني أمامها.

- أرغب في التحدث إلى الأمير "يوكوسوف".

- لقد خرج يا آنسة . لكن ينبغي أن أعرف اسمك لكي أخبره به عند عودته.

أسرعت الفتاة وقد انفرجت أساريرها:

- لا يهم . سوف أعود.

- أطلب منك العفو ألف مرة يا آنسة لابد لي من معرفة اسمك . ألست الآنسة "مونفور"؟

- بلي.

- سوف أصطحبك

- لكن ؟

قالت في ارتباك.

- إن الأمير هنا.

ثم - متجاهلا تردد "إليان" - تراجع لها في إجلال مشيراً لها بأن تتقدمه في سلم الشرف . كانت الحمرة قد علت وجهها فأدارت للخادم ظهرها حتى لا يلمح شيئاً . صعدت السلم ببطء حتى تتمكن من تمالك شعورها.

ودون أن يقرع ، فتح الخادم الباب المزدوج ، وهو من خشب الأبنوس المنحوت، وهو يفتح على مسكن الأمير.

تواجدت "إليان" في مظلة من الزجاج الأزرق مضاءة من الخارج بالعديد من المصابيح الكهربائية ، حتى إنها كانت تبدو وكأنها في وضح النهار . ثم رأت بابا مزدوجاً آخر موارباً.

أدخل الرجل الفتاة دون أن يعلن وجودها .

- "ليانوشكا"، أخيراً!

ظل "بوريس يوكوسوف" ممدداً على الأريكة - المكسوة بالحرير المذهب - وكان ملتفاً بعباءة حريرية مطرزة، ممسكاً بزجاجة شراب.

-اقتربي يا وديعتي، يا حمامتي!

تحفظت جيداً. وها هي الكلمات تتدفق من فمها :

- أيها الأمير اغتيال.

صاح:

- اقتربي . هأنا أطلب منك ذلك!

على الرغم من المسافة التي تفصلهما وهي عدة أمتار ، إلا أن "إليان" شاهدت حدقتي عينيه وهي تتسع ، مظهرة وحشية لا توصف ، غير محتملة . تراجعت . إنه ثمل !!

- هناك مؤامرة مدبرة ضدك . وغداً سوف تتعرض حياتك للخطر . لقد حضرت حتى أخطرك!

كانت عباراتها متقطعة ، لكنها قالت كل شيء .

لقد أتمت مهمتها، وأسرعت نحو الباب.

إن زجاجة الشراب التي ألقيت بقوة غير متوقعة حطمت مرآة وردية من "فينيسيا" مصدرة صوتاً مدوياً.

– فتاة فاسدة!

ثم بمرونة وحش ضارٍ جائع أمام غزالة، انقض عليها ورفعها من على الأرض بذراع واحدة ذي عضلات جبارة.

أخذت تقاوم وهي تصرخ، لكنه كان يبدو بلا مشاعر إزاء الآلام. لكمات، ضربات قدم، حتى أنه عمق أيضاً قبضة يده بين صفي أسنانها الصغيرة البيضاء:

–عضيني

هكذا أخذ يكرر بصوت أجش.

تواجدت المسكينة أمام شخص مختل عقلياً، مجنون. عاد "يوكوسوف" إلى أريكته في ثلاث خطوات، وكان ما يحمله ليس له وزن. ألقى بالفتاة على الأريكة، وهي تعاني الفزع واليأس. أمسك بحقيبتها وألقاها كما فعل بزجاجة الشراب وشد المظلة التي كانت لا تزال ممسكة بها.

ثم– في أنين ووسط دموعها المنهمرة – قالت الفتاة:

– إنك تتسبب لي في آلام غير محتملة.

ابتعد عنها مطلقاً ضحكة شيطانية.

– انهضي ومدي ذراعك!

رأته المسكينة – وهي مرتجفة – يتجه نحو الحائط ويرفع من عليه سيفاً.

– سأعمل على كسب ثقتك يا "ليانوشكا"! انظري كيف يعرف الروسي الثري كسب امرأة!

كانت "إليان" في هذه الأثناء– ميتة أكثر من أن تكون حية– تتابع كل حركة من حركاته. ها هو يقترب منها، رفعها من وسطها لكي يجبرها على الوقوف. فرد ذراعها الأيمن حيث كانت تتدلى المظلة

وأبعده عن جسدها.

لم تعد "إليان" سوى مانيكان أو ربما إحدى العرائس التي يحرك "بوريس يوكوسوف" خيوطها. وكان عليها أن تعاني كل ذلك في صمت ساحق، لابد أنه يسبق موتها.

حينئذ رفرفت حولها سعادة عجيبة.

قالت داخلياً: الوداع لـ "زافييه" ووعدته أن تسهر– من السماء– على سعادته الأرضية.

– لا تتحركي يا "ليانوشكا". إنك فخور. إنك متعالية، اعلمي أنك لست في خطر. ثقي بي.

وكانت كلماته الأخيرة مصحوبة بضحكة شيطانية.

هاهو الآن أمامها يلوح بسيفه. وكان صراخه الحنجري يخرج من أحشائه.

سمع صوت بالقرب منها. إنها المظلة التي سقطت، لقد انفصلت من الكوردون وكأنه من تأثير ريح بسيط.

وكان الأمير يكرر:

– هل أنت واثقة؟

وكانت "إليان" جامدة، لا تتحرك، لأنها أحست كأنها في عالم اللاحقيقة، حيث لا حاجة لها لسيقانها لكي تقف، حيث لم تكن في حاجة إلى رأسها لكي تفكر، وحيث لم تعد كائناً حياً بلحمه وعظامه، ولكن مجرد سحابة

مر الأمير من خلفها، وضرب قبعتها بالقرب من عنقها حتى إن خصلة من شعرها طارت مع المشبك وسقط شعرها على كتفيها.

ولما أراد الأمير تمزيق ملابسها بسيفه هلعت صاحت. أنّت ولكن لم يكن صراخها هو الذي جعله يتأثر فيتوقف. إنما لأنه أرهف السمع للإنصات إلى صوت مشاجرة.

ثورة جديدة تملكته. صاح وهو ينظر إلى المدخل:

اخرج أيها الروسي الثري.

قرعات قوية من بعدها فتح الباب لكي يظهر الدوق "ديبون"

– إن شعبك بخير

– اختنقت الكلمات في حلق "زافييه". إن المشهد الماثل أمامه تجاوز ما يمكن تخيله من بشاعة. الزجاج المحطم، الزجاجة المسكوبة على السجاد العجمي، المظلة، القبعة و.. عن اليمين وسط الحجرة الوجه الفزع المكلل بالشعر المتناثر، الذراعان المتشابكان على صدرها، كانت "إليان" تلقي إليه نظرة خالية من الحياة.

– ستجيب عن جريمتك أمام المحكمة!!

وكان صوته خالياً من أي نبرة. اصطحب الفتاة نحو الباب وهو يسندها بعناية.

في البداية بدا "بوريس بوكوسوف" مترنحاً من تأثير الخمر وكأنه سوف يدعهما ينصرفان. غير أن نزعة أخيرة أيقظت حاسته. انقض عليهما ملوحاً بسيفه. لكن "زافييه".

بقوة تفوق قوة البشر– تمكن من القبض على معصم الجاني الذي كان موشكاً على قتله.

وإذا بالأمير– وقد أخذته الدهشة – يرفع حاجباً وفي حركة ساخرة يقول:

ليكن. إن هذه الفتاة تعجبك وأنا أرغب فيها. هيا نتبارز عليها! وكان هذا الموقف يفوق احتمال الدوق. فما كان منه إلا أن صوب إليه ثلاث لكمات وإذا بالروسي– الثمل الميت – يخور.

هز "زافييه" كتفيه مغتماً وأخذ "إليان" بين ذراعيه تاركاً القصر.

الفصل الحادي عشر

– ضعي وجهك على كتفي أيتها الفتاة الصغيرة. هكذا كان "زافييه" يتصرف لكي يخفي ما لحق "إليان" من عدم ترتيب في مظهرها أمام عيون المارة. كانت عربة في انتظاره عند الـ "تروكاديرو"

واضطر أن يصعد حتى باب المعرض وهو يضم الجسد الهزيل إلى صدره.

بعد قليل، وضع الفتاة على المقعد وغطاها بسترته.

قال للحوذي:

– اصطحبنا عند "مانون ريفي".

وللوصيف:

– عندما تنزل، أخطر الخياطة بأننا نرغب في الدخول إلى الصالون مباشرة دون اختراق البوتيك.

وأخيراً جلس بجوارها، وأخذت خطوات الخيول تهدهدهما.

كان ذهن "إليان مونفور" خالياً. غير أن الحزي وحياءها الذي خدش جعلاها تبكي. كانت الدموع تسيل من جفونها المغلقة

– انتهى كل شيء يا صغيرتي، لا تبكي أنا هنا.

هكذا تمتم الدوق

– ستختارين أجمل فستان وسوف أعيدك إلى عمك لا تبكي يا "إليان"، سأنتقم لك، أقسم لك.

وكان صوته ذا وداعة وحنان عملا على مضاعفة دموعها. لماذا ينتقم لها طالما لا يحبها؟

تمكنت أخيراً من النطق. قالت:

– لماذا تنتقم لي كنت أتمنى الموت لأني لن أستطيع الحياة كما قبل الآن

– لا تنطقي بهذه الكلمات الغبية، لا تعذبيني، أنا الذي أرسلتك عند هذا الوحش!

أبدت ابتسامة حزينة:

– لا تلم نفسك، كان من واجبي أن أخطره، لأنه كان سيقتل غداً لكنه رفض الاستماع إليّ

كانت "إليان" وهي قابعة في آخر الأريكة تنظر بعينين كامدتين – دون أن تراهم – من يضيئون كشافات شارع "الشانزليزيه" ممسكين بأيديهم بالعصا السحرية. كان الوقت متأخراً والحدائق خالية من

الناس.

رفع "زافييه" السترة التي سقطت من على كتفي الفتاة العاريتين، ولاطف بأصابعه الوجنة المبتلة بالدموع ، وشعرها الذي ظل ملتصقاً بها. ثم ضغط على الوجه البائس لكي يجبره على الالتفات إليه:

– لن تكون محاولة اعتداء على "يوكوسوف". أعتقد أنه لن يسمع عن أعداء الرأسماليين لفترة معينة . سيخافون من القبض عليهم.

شعرت بأنه يحدثها عن ذلك لكي يعيدها إلى الحقائق التي تدور في المجتمع . كان يرغب في أن يجعلها تنسى الكابوس الذي يلاحقها . قاومت لكي تطمئنه ، وتظاهرت بأنها مهتمة دون أن يكون لها هذا الإحساس .

سألته:

– لماذا أتيت إلى المكتبة؟

– عندما وضح لي "سانتوس ديمون" أن الأمر بشأن خطة قنبلة ، فهمت أنك تعرضت لأسوأ المخاطر.

– إذن كنت موقناً أني سأتوجه إلى هناك؟

– بالتأكيد : لقد أخبرتنني بذلك.

تنهدت "إليان". تذكرت ترددها الذي سبق – خلال ساعات – رحيلها لشارع "ميسييه لي برانس". لم تندم على تغلبها على مخاوفها، لأن "زافييه" كان سيصدم لو أنها لم تنفذ ما عزمت عليه ؟

وكانت عيناها تكشفان عن شيء من الاعتزاز بالنفس ، سرعان ما عمل "زافييه" على استبعاده ؛ قال:

– كنت واثقاً بأنك سوف تكونين على درجة عالية من الغباء والعناد إلى حد يجعلك تدخلين إلى الفخ برجليك!

كان يعنفها في غير شراسة ، لكنها تمالكت نفسها، وبحت أنه لطيف.

– وهل كان ينبغي أن أحتمل مطاردتهم لي طوال فترة إقامتي في "باريس"؟

– لا بالتأكيد . لكن أما كنت قادرة على الانتظار حتى يعرف هذا الرسم؟

كان في إمكاننا القيام بتصرف مشترك.

ألقت إليه نظرة تكشف عن أنها غير قادرة على الحياة كسابق عهدها لكن بالعكس ، إن وجود "زافييه" كان يعيد إليها الحيوية بسرعة تكاد ألا تصدق:

– معاً ؟ لا أعتقد ذلك. كنت ستبعدني عندما تدرك خطورة الموقف.

– إنها حقيقة–قال هذا معترفاً– وسوف أكون صريحاً: كنت واثقاً بأنك لن تتواجدي في مثل هذا المكان السخيف.

– ولأني تواجدت فيه، هانت أعدت لهم الرسم؟

– لا يا صغيرتي، كنت سأعيده لهم بأي شكل : لقد كان – بكل جرأة– مطوراً. إذا عملوا قنبلة بذلك فلن تلحق الضرر بناموسة!

كانا قد وصلا إلى شارع "بيري" .نزل الوصيف لكي ينفذ الأوامر التي كان قد تلقاها . وبعد بضع دقائق، خرج من البوتيك وبرفقته "مانون" ، بيدها حلقة المفاتيح ، وتوجهت لكي تفتح باباً جانبياً.

غادرت "إليان" العربة بمعاونة "زافييه" ، خافضة رأسها ، ممسكة بالسترة وهي تضمها إلى صدرها.

استفسرت "مانون" بصوت مخنوق وقد فزعت:

– ما الذي حدث؟

قاطعها الدوق:

– لا شيء ! لم يحدث شيء . غاية ما في الأمر الآنسة "مونفور" أتت لكي تختار أحد الفساتين من آخر صيحة في الموضة عندك.

لم تلح السيدة بعد ذلك . أدخلتهما إلى الدهليز وفتحت لهما بابا آخر بيد مرتجفة.

وعندما تأهب "زافييه" لتركهما عند مدخل الصالون الخاص بالقياس، لكي يذهب إلى البوتيك حيث يكون في انتظارهما ، أوقفته الخياطة

وقد بدا عليها القلق:

– ألا تفضل يا سيد "ديبون" الجلوس في صالون آخر؟

اتسعت حدقتا عينيه من الدهشة:

– لا ... لماذا؟

– لأن الآنسة "فون جليكر" هنا.

ضحك:

– إنك تضلينني يا "مانون". يسعدني أن أرى هذه الطفلة!

ثم طبع قبلة طاهرة على جبين "إليان" متمتماً:

– إني في انتظارك. تجملي.

وكانت التعاسة قد عادت إلى عيني الفتاة ومن فرط تأثير الأحداث التي مرت بها في السهرة، غفلت تماماً عن "إيما"، ليس لأنها نسيت أن الدوق خطيب لـ "إيما"، لأن هذه الفكرة كانت كامنة في مكان ما فيها؛ وكانت تؤلمها في كل دقيقة من حياتها؛ لكنها غفلت عن "إيما" الصغيرة المراهقة التائهة بين السماء والأرض. لكي تطير، أن تكون واثقة بأن أجنحتها لم تكسر.

دمدمت للخياطة:

– كنت ضحية.. سوف أوضح لك ذلك فيما بعد. لقد أنقذ الدوق "ديبون" حياتي.

– إنك تحبينه أليس كذلك؟

– أكثر من كل ما بالعالم يا "مانون". لذلك لا أرعب في مشاهدته.

– لماذا؟ لي إحساس بأنه يحبك أيضاً.

ثم أبدت إشارة مسحت بها السؤال:

– إنه نصيب "إيما". ليتنا لا نتكلم في ذلك بعد الآن.

وكانت كلماتها تختنق في حلقها:

– أعطني فستاناً وقبعة.. وحقيبة يد أيضاً، حتى وإن لم يكن لدي ما ألبسه بالداخل سأخرج من حيث دخلت. لا تخطري الدوق إلا بعد انصرافي.

خرجت "مانون" لكي تحضر الفساتين التي ستقدمها لها؛ وبطريقة آلية، بدأت تخلع ملابسها.

أتى إلى مسامعها صوت "إيما" المرح من خلال الستائر القطيفة الثقيلة التي تفصل الصالونات عن البوتيك.

– كيف أشكرك يا "زافييه"! لقد تحولت تماماً بعد القرار الذي اتخذته يا "زافييه"!

وفي الحجرة المجاورة، كانت "إيما" تنعم بالسعادة الكاملة. كانت "إليان" ترغب في سد أذنيها، غير أن هذه الحركة بدت لها غير لائقة. كما كانت تحس بأنها تتجسس على الرغم من أن الكلمات تأتي إلى مسامعها على غير إرادتها.

سألها "زافييه" ضاحكاً:

– أي قرار؟ لقد اتخذت قرارين مهمين خلال أسبوع!

– القرار الخاص بزواجنا وهو أمر طبيعي! وبالنسبة للآخر أعترف بأني ذهلت وقد خاب أملي.

ارتجفت أصابع "إليان" على بعض المشابك التي تناثرت من سيف "يوكوسوف". لا شك في أن السبب الوحيد لنشوة الفتاة النمساوية هو أن "زافييه" قدم تاريخ ارتباطهما. ولقد أحسن التصرف. هكذا حدثت نفسها وكان صدرها يعتصر لمرحهما.

– أتعلمين أنك صبية عجيبة؟ إنك موشكة، وتستعدين للاستمتاع بالحياة، وهانت تدهشين لأني أهدف إلى ذلك أنا أيضاً

– لكن السيارة كانت حياتك بالضبط! وكان النجاح مضمونا لاختراعك.

– وما رأيك إذن؟ إنه هكذا دائماً: لقد أهديته إلى "لويس رينو" لا شك في أنه سوف يستفيد منه أكثر مني.

– هذا لا يفسر لي سبب رفضك لسباق "باريس– دوفيل".

انتفضت ابنة أخي عضو مجلس الشيوخ في هذه المرة" لاحظت أنها إذا كانت قد اتجهت إلى دوافع زواجهما، فلم تشأ الاستسلام للتفكير

في أن "زافييه" يحب خطيبته إلى حد يدفعه إلى رفض ولعه بالميكانيكا.

ابتسمت في حنان حزين أمام سذاجة "إيما". لن يشترك الدوق في المسابقة وهاهي المراهقة ذات العينين الساذجتين تسأل لماذا؟" لأنه يحبك - تمتمت "إليان" - ويرغب في تكريس كل وقته للفتاة التي يحبها.".

حتى الآن لم تصدق نفسها ؛ لكن صوت "زافييه" جاء مثل الصدى لتمتمتها. قال في مرح:

- لقد قررت أن أكرس ذاتي لسباق أهم!

- أيهما أغلى؟

- السباق إلى السعادة!

وهاهي "مانون" عائدة وبيدها فستانان، فردتهما أمامها.

- كنت لا أرغب إلا في إحضار فستان واحد، لكني عجزت عن إتخاذ القرار. وكل منهما مناسب لك تماما، وهذا متوقف على القبعة. اجلسي أمام المرآة.

استسلمت في وداعة لصديقتها حتى تصفف لها شعرها وتضع عليه قبعة ثم الأخرى دون أن تصل إلى قرار.

- ابتسمي قليلاً إنك لا تسهلين علي المهمة، أتعلمين أعتقد - مع ذلك- أن هذه مناسبة أكثر. وهي رائعة مع الفستان الذي بلون القش.

كانت "إليان" لا تمنح هذا الاختيار أي اهتمام، كل ما يهمها هو أن ترتدي أي شيء. فما كان منها إلا أن وافقت.

ساعدتها "مانون" على ارتداء الفستان.

- ستكونين رائعة

ومن البوتيك، كانت بعض كلمات الحديث بين الدوق و"إيما" تقطع ثرثرة الخياطة المتلاحقة

كانت "إيما" تدندن:

- ستشاهدون رأس أبي عندما أعلن لي الخبر! ورأس والدي عندما

قال لي ذلك!

- عني أنا لقد تهللت. لكن في إعلان ذلك مضاراً لي.

- آه "زافييه". لابد من أن أقبلك!

هاهي "إليان" مستعدة الآن. مدت لها "مانون" حقيبة يد وشمسية، وتوسلت إليها لكي تلحق بالدوق الذي كان في انتظارها. لكنها لم ترجع في قرارها، لأنها تدرك أن الشاب سيفهم بالتأكيد أنها ترغب في الاختفاء من حياته إلى الأبد، وأنها على دراية بطبعه، لذلك فهي تأمل ألا يعمل على البحث عنها ولا محاولة رؤيتها ثانية.

بدت على وجه "إليان" الجميل علامات حزن يصعب وصفه، أثناء عبورها حي "سان- أونوريه" وهي تمر من بين العربات والأوتوبيسات العامة. لم تلمح الحصان الوحيد النازل من على الهضبة لكي يعود إلى مقره عند موقف الأوتوبيسات.

وعندما بدأ النهار يميل، قادتها ساقاها في نفس الشارع حيث كانت قد تعرفت لأول مرة على الدوق "ديبون".

وعند ناصية شارع "ميسين"، حولت رأسها.

كان قلبها يخفق أثناء ما كانت تحاول تخيل وجود "نيستور" في هذا المكان، اللص، الرجل الذي يوصل الحمامات للمنازل الذي ترك عربته والخيول غير أن الشارع كان هادئاً، ولم يكن خيالها على قدر كاف من القوة لكي تجسم هذه الحركة.

لقد مضى الماضي والحلم لن يعود إلى الحياة ثانية

شعرت بشخص يجري من خلفها. حينئذ بدا لها سماع "امسك حرامي". والتفتت.

هاهو "زافييه" أمامها.

- لماذا تهربين مني أيتها الفتاة الصغيرة. لماذا تهربين مني؟

تمتمت:

- آه! لارحمني.

ضمها إليه بقوة، ثم أخذها تحت سقف رواق، بعيداً عن الأنظار.

– إنك مدينة لي بإلقاء ضوء على أمر ما، لأن حياتي متوقفة عليه . إن لم أكن مخطئاً

رفعت نحوه نظرتها العجيبة الصافية التي تعكس جيداً شفافية روحها:

– مخطئاً؟

– إني أحبك.

خفق قلبها إلى حد أنه كان يعتصر . هل سيتجرأ ويطلب منها أن تكون زوجته ؟ ليس من مخرج ممكن سوى ذلك.

– ما الذي تنتظره مني يا سيد "ديبون"؟

أثناء نطقها بهذه الكلمات ، حاولت أن تجعل صوتها ذا نبرة جافة لكنها لم تتمكن من التنفيذ

وهكذا تمكنت من الدفاع عن نفسها:

– ليس لك الحق في أن تحبني

– لكني حر أيتها الفتاة الصغيرة. حر!

اهتزت بل وكادت تترنح.

– لقد أعدت إلى "إيما" كلمتها هذا الصباح.

– آه! يا حبي . كم كنت أتمنى أن تحضري فرحة هذه الطفلة!

حوطت "إليان" كتفي الشاب بذراعيها. وكانت هي التي قدمت له فمها:

– "زافييه" ، أنا لم أفهم قصدك وقتئذ

– أيتها الفتاة الصغيرة لا، إنك لست فتاة صغيرة ، إنك زوجة يا "إليان" . زوجتي أترغبين في ذلك؟

همست "إليان" وهي في غمرة السعادة:

– كنت أخشى من أن تطالبني أن أكون سيدتك

عمق "زافييه ديبون" أصابعه في شعرها محركاً القبعة .

ثم قارب شفتيه من شفتي "إليان" المقدمة إليه.

– وأطالبك أيضاً أن تكوني سيدتي

تمّت بعون الله